العدد: ٣٥ / السنة الثامنة / (مارس - أبريل) ٢٠١٣
مجلة علمية فكرية ثقافية تصدر كل شهرين من إسطنبول

حراء

مجلة علمية فكرية ثقافية

www.hiramagazine.com

حرقة ورواء

مكتوي الفؤاد،
بجميعه.. يتحدى اللظى،
وإنْ المشهد.. مضبَّبًا للعين بدا،
فمن أجل إرواء الظامئين..
في النيران اصطلى..

* * *

فلسفة الحياة عندنا

الوعي الحضاري

محاورات على ضفاف النيلين

بسم الله الرحمن الرحيم

الافتتاحية

حراء
مجلة علمية فكرية ثقافية
www.hiramagazine.com

العدد: ٣٥
السنة الثامنة
(مارس – أبريل) ٢٠١٣

جوهر الحياة

التفكير جوهر الحياة، بل هو "الداينمو" الذي يمدُّ عجلة الحياة بالدوران، ومن دونه تغدو الحياة شاحبة باهتة، باردة برودة الموت، وساكنة سكونه وصامتة صمته.. وفي مقاله القيم "فلسفة الحياة عندنا" يجلي "فتح الله كولن" هذا المعنى ويتناوله من جوانب مختلفة، مبيّنًا أن حاجاتنا إلى "التفكير تضاهي حاجتنا إلى الهواء الذي نتنفسه"، وأن الأمة التي لا تفكر، فإنها في الحقيقة لا تحيا، أو تحيا ولكن على فتات أفكار الآخرين. وهذا الفتات ربما يكون قد تعفّن منذ زمن بعيد، فنحن إذا تناولناه فإنما نتناول ما يزيد في أمراضنا الفكرية والروحية ولا يعمل على شفائنا منها، وهذا الأمر معلوم ومحسوس، فبها نحشي عقول أجيالنا من أفكار هي خليط عجيب من ثقافات وأفكار ليس فيها من التجانس ما يجعلها سائغة القبول عند الكثير من الأذهان المتفتحة، وهذا الأمر كثيرًا ما يؤلم ويبكي "الأستاذ" ويؤلمنا ويبكينا على إثره، فنذرف الدمع ونسكبه مدرارًا.

فإذا بـ"محمد السقا عيد" يحدثنا حديث العلم عن "أسرار الدموع" التي تذرفها عيوننا إذا ما حزنا أو فرحنا سواء، ويجلي لنا الكثير من أسرار هذه الدموع التي قد تكون في بعض الأحايين غسيلاً لأمراض كثيرة تنتاب العين في أوقات مختلفة. وإذا ما كففنا دموعنا رأينا "بركات محمد مراد" وهو يكتب مقالاً غاية في الإمتاع عن "التمثل والإبداع في العمارة الإسلامية" التي تشكل أعظم معالم الحضارة الإسلامية وإبداعاتها في الأدب والفكر والفن. وكأن مقال البوشيخي "من القرآن إلى العمران" متمم وموضح فلسفة هذا الإبداع الفني وجذوره الأولى في كتاب الله القرآن الكريم؛ فيتحدث عن "الفكر العمراني" في القرآن الكريم إذا صح التعبير.

و"مريم آيت أحمد"، تتحدث عن "آليات بناء ثقافة الوسطية"، وهو مقال يشكل لبنة من لبنات البناء الثقافي الوسطي الذي تسعى الكثير من الأقلام إلى تناوله وتناول آلياته وطرائق بنائه. أما "السيد حامد السيد"، ففي مقاله المبتكر "أسس القيادة والإدارة" يستقرئ معطيات قصة ذي القرنين المليئة بالاستنهاضات والتحفيزات، لكي يفيد من مدلولاتها أولئك المتصدون للقيادة والإدارة في كل شأن من شؤون الحياة.

و"جاسم سلطان" يتحدث عن مقاربة المفاهيم وعن الوعي وعن الحضارة وعن الفاعلية والتمكين. ويأتي بعد ذلك كله مقال "خالد الصمدي" عن "التربية الإسلامية والبعد الإستراتيجي لقضايا التنمية"، وهو يصبّ كذلك في المنحى الحضاري نفسه الذي سبق الحديث عنه. وفي حقل "الأنشطة الثقافية" يستعرض لنا محمد باباعمي نشاط مجلة حراء في السودان، فيتحدث عن الملتقيات والندوات التي أقيمت هناك لتعريف رجال الفكر والرأي بمجلة "حراء" وبخطها الفكري الوسطي، وهو مسك الختام في هذا الاستعراض.

المحتويات

فلسفة الحياة عندنا / فتح الله كولن (المقال الرئيس)	٢
أسرار الدموع / د. محمد السقا عيد (علوم)	٦
التمثل والإبداع في العمارة الإسلامية / أ.د. بركات محمد مراد (ثقافة وفن)	١١
من القرآن إلى العمران / أ.د. الشاهد البوشيخي (قضايا فكرية)	١٥
موقع رسائل النور من الفكر الإسلامي الحديث / د. مهدية أمنوح (قضايا فكرية)	١٧
معرفة الله / حراء (ألوان وظلال)	٢٠
الحوت الأزرق.. عملاق البحار والمحيطات / أ.د. عرفان يلماز (علوم)	٢١
آليات بناء ثقافة الوسطية / د. مريم آيت أحمد (قضايا فكرية)	٢٥
عرض حال / أديب إبراهيم الدباغ (أدب)	٣٠
أسس القيادة والإدارة في ضوء قصة ذي القرنين / د. السيد حامد السيد (قضايا فكرية)	٣١
ترجمة الفكر.. من "بيت الحكمة" إلى "غوغل" / طه كوزي (قضايا فكرية)	٣٦
كيف يصل / حراء (ألوان وظلال)	٣٨
المسلم وإعلام الآخر بين "السماع" و"الاستماع" / د. فؤاد البنا (قضايا فكرية)	٣٩
الوعي الحضاري.. فاعلية وتمكين وشهود / د. جاسم سلطان (قضايا فكرية)	٤٣
صدأ القلوب / د. سعاد الناصر (أدب)	٤٧
التربية الإسلامية والبعد الإستراتيجي لقضايا التنمية / د. خالد الصمدي (تربية)	٤٩
كعبة الروح / حراء (ألوان وظلال)	٥٢
دروس الحضرة السلطانية / متين رئيس (تاريخ وحضارة)	٥٣
السودان.. محاورات على ضفاف النيلين / د. محمد باباعمي (أنشطة ثقافية)	٥٦
سلطان أمام القضاء / نور الدين صواش (محطات حضارية)	٦٢
في الماء ولا يتبلل / نور الدين صواش (محطات علمية)	٦٣

فلسفة الحياة عندنا

يعيش قسم من البشر، من غير ممارسة للفكر، وقسم آخر منهم يفكر ولكن لا يعكس فكره على واقع الحياة قط. أما ما ينبغي، فهو أن يعيش الإنسان وهو يفكر، وأن يبتكر أنماطًا فكرية جديدة للعيش فيتفتح على آفاق مُركّبات فكرية مختلفة. والذين يعيشون من غير فكر، هُم دُمى تُمثّل فلسفة حياة للآخرين. هؤلاء يلهثون للتغير من شكل إلى شكل ولا يملّون تبديل قوالبهم، ويضطربون ما عاشوا في الانحراف بين الشعور والفكر، والانزلاق في الشخصية، والتمسّح بين الصورة والسيرة. وقد يتقاسمون حينًا حظوظًا حصل عليها المجتمع، ويستفيدون حينًا من توافق مجرى الأمور -وكأنها تترتب حسب تفكيرهم وحسهم وإرادتهم- لكنهم لن يريحوا أرواحهم البتة بالمحاسن والفضائل الإرادية، ولن يَشبّوا بها إلى العلى، ولن يوجهوها إلى اللانهاية. هؤلاء يشبهون بِرَك الماء العقيمة والمحرومة من البَرَكة والخامدة والمعرضة إلى الأُسون.

فلا يبعد أن يتحولوا -بمرور الزمان- إلى مجمع للفيروسات ومأوى للمكروبات، بَلْه أن يفيدوا بشيء باسم الحيوية.

وهم ضحالٌ فكرًا وسطحيون رأيًا، إلى درجة أطفال يقلدون كل ما يرون ويسمعون، وينجرّون وراء الطغام هنا وهناك، ولا يجدون سانحة للإحساس بأنفسهم والإنصات إلى دواخلهم وتمحيص قيمهم الذاتية... بل لا يشعرون البتة بوجود قيم تخصهم بأنفسهم. فيحيون كعبيد لأحاسيسهم الجسمانية والبدنية عبودية لا انعتاق منها. ويُسَخِّرون كل شيء حصلوا عليه، ويحصلون، لخدمة الجسمانية في إطارها الضيق، ويغيّرون أعظم الألطاف التي وهبها الله للإنسان، كالقلب والإرادة والحس والشعور، إلى وسائل رخيصة لملذاتهم البدنية، ويقضون أعمارهم في بوهيمية. المقام والمنصب والشهرة والمنفعة والحرص على الحياة، من أهم العوامل التي تُعيّن حركة هؤلاء وفعالياتهم. وسواء أَعَرفوا أم لم يعرفوا، فهم يقعون كل يوم في واحد أو أكثر من هذه

الفخـاخ القاتلـة، ويذبحـون أرواحهـم مرات بسكين أرذل أنواع الموت.

وليـس لأمثـال هـؤلاء مـاضٍ ولا مستقبل مـا دامـوا يـرددون قـولَ عمر الخيام: "لا تَشغل البَال بماضي الزمان/ ولا بآتـي العيش قبـلَ الأوان/واغنم مِن الحاضـرِ لذّاتهِ/فليـسَ في طبـعِ اللّيالي الأمـان"، ويتبعون غرائزهـم الحيوانية، ويـرون الدنيا عشـبًا ومرعـى، ويحيون راغمين أنف مشـاعرهم ومَلَكاتهم الإنسـانية، فلا ينفكون من التقلب المضطرب في المستنقع و"اللوثيات".

تحـن نجلـب عناصـر حياة المسـتقبل من ماضـينا، فإن اسـتطعنا أن نعجنهـا في معاجن ثقافتنـا الذاتية بنور الدين وضـوء العلـم، فقد جهّزنا خميرةَ أبديتنا.

توليد الأفكار

أمـا الذيـن يعيشـون حياتهـم مفكريـن، ويجعلـون -حسـب درجاتهم- كل يوم أو كل ساعة من حياتهم، ميناءً أو مرسى أو طريقًا للأفكار المبتكرة، فهؤلاء يمضون أعمارهم في خوارق العيش ما فوق الزمان ومفاجآته وسـحره، فيتجرعون الماضي كماء نبع مبارك، ويتنفسونه نفحةَ رائحةٍ في رئاتهم، ويطالعونه ككتـاب، ويسـيرون إلى المسـتقبل بهذه العُـدة... ويحضنون الزمـن الآتي بحرارة قلوبهـم، ويلوّنونه بآمالهـم، ويصوّرونه بعزمهـم وإرادتهـم... ويحتسـبون الزمـن الحاضـر مركـزًا إسـتراتيجيًا لتنفيذ أفكارهـم المثالية، ومصنعًا لإنتاج التقنيات الضروريـة في هذا السـبيل، وجسـرًا للعبور مـن النظري إلى العملي... وَيَجدّون دومًا كي يكونوا فوق الزمان وفوق المكان.

فهُـم مـن وجهـة يطالعـون الوجـود والزمـان فـي هـذا المسـتوى، ومـن وجهـة أخـرى ينسـلخون من ضيـق الحياة الجسـمانية وينفسـحون فـي رحاب عالـم الفكر ويسـيحون -وهـم فـي هذه الحيـاة الفانية الموقوتة- على سـفوح ممتدة إلـى اللانهايـة فـي عالـم آخـر ذي بُعْـدٍ أبـدي... يسـيحون ويدفعـون عربـون اللانهاية بأفكارهم وأحاسيسـهم وآمالهم، ويتعايشـون مع مشـاعر اللانهاية، ويتطلعون إلى ثراء الكينونة الإنسانية في أغوار الرحاب اللَّدُنّية التي حفروها في مغاوص قلوبهـم، ويجـدّون فـي اصطيـاد أنـواع الفجـاءات بالشِباك التـي نشـروها فـي قلوبهم ممـا لا تبصره الأعين ولا تسـتمع إليـه الآذان ولا يتصـوره خيال الإنسـان. فترشـدهم علومهم ومعارفهـم ومكتسـباتهم العالية فوق المسـتويات، إلى ما هو أعلـى، بل أعلـى المعالي، ويؤمّـل كلّ منهم أن يكـون عُقابًا سماويًا. فهؤلاء الذين يحيون حياة كهذه، ويجعلون أعمارهم مزارع لأشجار الفكر، سَمُّوهم إن شئتم أهـل الحكمة، أو أبطال الفلسـفة ذوي الهـدى، وعرِّفوهم كما تشـاؤون، لكن اعلموا بـأن رجال النور الذين يحيكون التاريـخ برقـةِ نسـيج الحريـر وظرافته، قـد ظهـروا دائمًا من بين هـذه الأرواح العاليـة، علـى مـر الزمـان الممتـد من العوالـم القديمة إلى عصرنـا الحاضر. وحتـى أنظمـة البراهميـة والبوذيـة والكونفوشية والطاوية والزرادشتية، التي تشبه النظم الفلسفية وليس الأديان، هي هدايا أبطال الروح إلى الإنسانية.

فإن ألحان صروح الفكر هؤلاء، تُسمع دومًا في خرير تيار الفكـر المديـد إلى الماضي. إن الـرؤى المختلفة إلى الحياة، وأنمـاط الحيـاة المتنوعـة، وأحـواض الحضـارات العالمية، والثراء الثقافي في الجهات الأربع من العالم القديم والجديد، كانـت دائمًا مـن نتاج بيـادر الفكر لهؤلاء الأبطـال. فمع كل هـذا التبديل والتحريف والإبعاد عن الأصل، يمكننا أن نقول باطمئنان تام: إن القسم الأعظم من البشر في الأرض لا زالوا يتبعـون آثار ذلـك المحتوى والمعنى والـروح القديم -مهما تعسـر التأليف بين الحياة المعاصـرة وبين هذا القول- وأظن أن الضـرورة قائمـة لكي نتقبل اسـتمرارية الأخطـاء -كحالة طبيعيـة- بحسـن الظن وحسـن التأويل، وذلك إلـى أن يجد "الممثلـون" الأبطـال الأمـورَ التي لم تتعرض إلـى التحريف والتبديل من تلك المرجعيات.

وبنـاءً علـى ذلـك، ما يجـب علينـا اليوم -ونحن نسـتعد للتجديـد مرتبطين بأوثق الروابط بجـذور معانينا الذاتية- هو أن نجهّز الأبطال الذين يجيدون تلقيح أنفسهم بأمصال الوقاية المستخرجة من ذات أرواحهم... الأبطال المُنْشِدين القادرين اليوم على أداء الكلمات لأناشـيد ماضينا من غير تعثر بشـيء أو بعائق، وعلى استشـعار توقد الحماس في قلوبنا المتجددة كل مرة بتلون آخر.

والواقع أننا سـوف يطالنا خـراب عظيم على أيدي صناع أجانـب أغرارٍ، لحين إعدادنا وتجهيزنا لهؤلاء الأبطال. وإبّانَ ذلك، ستشتغل الإنسانية جمعاء أيضًا بصب أساطيرها القديمة لملء فراغ القيم الأزلية الكونية التي تبحث عنها بوجدانها فلا تعثـر عليهـا بعقلها... فتتقلـب من فقدان الطمأنينـة إلى دوار الأزمة، ومن دوار الأزمة إلى تخريبات جديدة.

غياب المنظومة الفكرية

لقد غابت عن واقعنا منذ قرون منظومة فكرية ذاتية، وفلسفة حياة ذاتية، تعتمد على الحركيات الإسلامية التي تشكل جذور المعنى لثقافتنا "الذاتية"، فَتَشتَّتنا شذر مذر نحن وعالم كبير مرتبط بنا. ومن الضروري أن نميز بين النسق الفلسفي والفكري لمترجمي نظام الفلسفة اليونانية المتجمعة في الحوض الفكري لأرسطو، من أمثال الكندي والفارابي وابن رشد، وإلى حد معين ابن سينا، وبين نسقنا الفكري وفلسفتنا في الحياة، الموصولة الجذور بالسموات، القديمة كالأزل، لكنْ الجديدةِ، بل الأكثر جدة من الجدة ذاتها إلى درجة القدرة على استيعاب كل العصور، والمنضودةِ من الحكمة والحِكَم. فموضوع نسقنا الفكري قائم على تفسيرٍ ذي تنزُّلٍ من اللاهوت والجبروت والملكوت والناسوت، ومعلومِ المنشإ ومنوّرٍ ومعتمِدٍ على حقيقة الخلق. فإذا استطعنا أنَ نتفهم هذا التفسير والتأويل بنكاته الذاتية، نكون قادرين على إبراز نظامنا الفكري، وهذا يعني في الوقت نفسه افتتاحَ طرق واسعة تؤدي إلى تجديد جاد على مستوى العالم كله.

لقد بُذلت الجهود في سبيل نظام فكري كهذا مراتٍ كثيرةً منذ عهد محمد الفاتح -جعل الله مثواه الجنة- لكنها لم تبلغ الغايات المرجوة منها. هذه الملاحظة يمكن أن تتعرض إلى المناقشة من بعض جوانبها، لكن الحال هو هذا عمومًا. لقد جَدّ الكثيرون في أن يستجيبوا لمثل هذا البحث والترقب في الوجدان الاجتماعي العام، كأمثال "خوجه زاده" و"الملا زيرك"، أو "مصطفى رشيد باشا" ومهندسي "المشروطية" (الحكم الدستوري)، ومنهم إلى كثيرين من عمال الفكر في المرحلة الحديثة، الخالصةِ نياتُهم وغير الخالصة. لكن بعضهم تعثَّرَ وتوقفَ عند "تهافت" ابن رشد والإمام الغزالي، وبعضهم غرق في دوامات الثورة الفرنسية وأوغوست كومت، وبعضهم تلهى وانشغل بهذيان دركهايم... ولم تكلّ الحركة أبدًا، لكن لم يحسبوا حساب العصر حينًا، أو تراكضوا وراء الأحلام وحدها، أو اتُّخذت الأهواءُ والرغبات آلهة من دون الله فتبدد في الحيرة والضياع ميراثُ ألف سنة من القيم "الذاتية". ويا ليتنا استطعنا الآن أن نتجاوز هذه السلبيات... هيهات هيهات! فلسنا ندعي أننا ننظر بعين الرضا إلى هذا الجانب من واقعنا. فكم أتمنى أن نتجاوز السلبيات كلها، وأن نطور نظامًا فكريًّا وفلسفة "وطنية" تتغذى من مصادرنا الذاتية!

زوايا اختلاف الشعور

وأشير هنا إلى أن آراءنا ستتناقض مع بعضها باستمرار، وسينهش بعضنا بعضًا في فخ "التعارض والتساقط"، بسبب الاختلاف في زوايا الشعور والإحساس بالكائنات وتفسيرها ما لم نُقِم ما نبنيه، على قاعدة فكرية راسخة كهذه، وما لم نمتلك نظامًا فلسفيًّا كهذا. فيجب تحقيق عائدية مستقبلنا إلينا -مثلما حاضرنا- بهذه الأصول وبهذا النظام، وبفيض أسلوب تتقاسمه الأجيال جميعًا. فإذا لم تتحقق الوحدة في مشاعرنا وفكرنا ونمط حياتنا، فستظل الوحدة "الوطنية" والتضامن "الوطني" أُمنية حماسية. فالمنطلق "الوطني" والفكر "الوطني"، والتعقل الوطني، وواردات الروح، أمور بالغة الأهمية في أي نظام من الأنظمة. فإن أي نظام فكري لا يستطيع أن يحقق وحدة الحس، ووحدة المنطق، ووحدة المحاكمة، وسهولة التعايش معًا لشعب من الشعوب، إلا بالمقياس والقدر الذي يستمد من عقل الشعب ووجدانه وعالم أحاسيسه... وعلى الضد إذا تصادمت المشاعر والأفكار والتفاسير والأساليب وتناقضت المحاكمات، فإنّ تزاحم الحركة في هذه الأحوال، لا يعني كثرة البركة البتة، ودع عنك البركة، فكثيرًا ما يَؤُولُ المصير إلى الاضمحلال في هذه الأوضاع. إن كل حملة وجهد في المجتمع الذي يعاني من فوضى في الفهم والتفسير، يشبه أمواج البحر المرتطمة ببعضها؛ إذ تتكاسر دومًا، وتنصبّ إلى حوض عطالتها، وتلف وتدور في فراغ الدور والتسلسل الفاسد. ولعلنا نجد بالتمحيص حكمةً في تكاسر أمواج البحر بالارتطام مع بعضها. لكن أمثال هذه المصادمات في المجتمع، لا تخلّف إلا التعفن والانحلال وإهدار النَّفَس. ففي مثل هذا المجتمع، يكون كل فرد ذئبًا يفترس الآخر، وكل فكر برنامجًا للموت. ومع أن السماء تمطر رحمة على مثل هذا العالم، لكن الهيئة الاجتماعية تبقى تحت تهديد عُثّتها. وكذلك تبقى القيم التاريخية فيها معرضة إلى الانخراق والتمزق، وتبقى المقدسات مهددة بالتبدد. ولا محل للوفاء عند الكهول في الركام البشري لهذا المجتمع، ولا مكان للفتوة عند شبابهم. فالقوى الفتية والحركية المأمول منها أن تسمو بالمستقبل كسارية العلم على هاماتها، هي التي تحتقر الراية وتشتم الماضي من جهة، وتحسب المستقبل ساحة جنون لإجراء رذائلها من جهة أخرى... أما الكهول والمثقفون الذين سلّموا أنفسهم للامبالاة المفزعة، فيتصرفون كمشجعين لفكر

"اللوثيات"... فتراهم يثيرون البوهيمية في الأرواح، ويصبّون دخان النار على البصائر، بأقوالهم وكتاباتهم ورسومهم وبرامجهم في وسائل الإعلام.

وفي مثل هذه المرحلة، لا تحفز مآوي العلم عشقَ العلم وفكرَ العلم في الأرواح... ويلعب أصحاب أيديولوجيات معينة بالذين يمثلون القوة وكأنهم دمى، يفترس بعضهم بعضًا... ويضطر المنطق والمحاكمة والإلهام إلى المسير في الممرات الضيقة للرموز والإشارات... وبدهي أن الحياة بذاتها تكون تعذيبًا للحياة في مجتمع كهذا، عامرٍ بالنقائض والمخالفات، مقدّمٍ للرغبات والأهواء على الفكر.

فلسفة الحياة

والحال أن نظام الفكر وفلسفة الحياة عندنا رحيبة، تتناول عوالم الوجود، وما عدا الوجود، وما قبل الوجود، فتقيّم الأشياء وما عدا الأشياء في كلية، وتعيّن معالم نمط الحياة في تكامل وإحاطة. فهو نظام يحقق العدالة الكونية المرتقبة في الأرض كلها بتحويل السلوك الأخلاقي إلى حال السيولة في المجتمع وأجزائه الأفراد، ويستجيب للمتطلبات الإنسانية، فيصل المجتمع في ظل ذلك إلى القدرة على تجديد نفسه ذاتيًا بالتربية على الروح والأخلاق والفضيلة والتفكر. ثم يكون فكرنا الحضاري وغنانا الثقافي كسلعة رائجة في كل أقطار الأرض، فنغدو اليد المعطاء التي تقدم في ارتياحٍ هباتِ فكرنا الإنساني وفلسفتنا الأخلاقية وفهمنا للفضيلة ومتلقياتنا للعدالة. وبفضل هذا الوضع والمستوى أيضًا، تنبجس الحركيات الإدارية والأصول الاجتماعية والاقتصادية في الدولة -كما في مصادرها الأخرى- من الروح الذاتية للأمة، فتتحرر من أنواع "القيود" كلها. إن "القيود" الضمنية المضروبة على رقابنا حتى الآن كالنِّير، بسبب نقاط ضعفٍ فينا أو مديونيات علينا، ومهما كانت خفية غير جلية، عَرَّض نظامَنا الإداري وأنظمتنا الاقتصادية والسياسية والعدلية إلى العطل والفشل وأصابها بالشلل. إن أبناء أرومتنا الذهبية الذين جعلوا الأناضول أرقى بلاد الأرض عمرانًا، قد نسجوا أو أنشأوا أنظمتهم الإدارية والسياسية وتشكيلاتهم العدلية، بمستلزمات الروح الذاتية. فلم يسمحوا لفكر أو لمؤسسة أو لفهم أن يجتاز من أبواب هذه المؤسسات التي تُعَدّ "بيوت الحرم" للأمة ما لم يُقَيّم بالمقوّمات والمعايير الذاتية. ودع عنك أن يأذنوا بذلك، فهم لم ييأسوا حتى حين انسحابهم جانبًا وقد أثختهم الجراح، مغلوبين إلى مدة، بعد حرب ضروس مع العالم كله ولكن مع بريق الأمل، مهزومين ولكن مع الإيمان. فلم يتوانوا عن إلقاء أيديهم إلى التهلكة لحماية أصل حياتهم الذاتية، وتراكموا حول الشعور التاريخي، وعضوا عليه بالنواجذ -حسب إفادة الحديث النبوي- على المقومات التي يدينون بوجودهم لها... فكانت نواصيهم عالية، وقراءاتهم حول الدنيا والعقبى موزونة، وأنفاسهم حرى، ماضين نحو "إحياء" جديد.

> **يجب علينا اليوم أن نجهّز الأبطال الذين يجيدون تلقيح أنفسهم بأمصال الوقاية المستخرجة من ذات أرواحهم.**

ترقب الفجر

وقد نستطيع أن نكون مثلهم -وقد نتقدم عليهم ونحن نترقب فجرًا يتبع فجرًا في هذا الزمن- إذا قيّمنا الدنيا التي نعيش فيها تقييمًا صحيحًا من وجهة أفق الحكمة الذاتية، ففسرنا الأشياء والحوادث تفسيرًا صحيحًا، وشخّصنا المتطلبات الأساسية لبناء إنساننا الداخلي، وانشددنا بفكرة التواجد والحضور إلى الأبد. وما الذي يعيق الأجيال البصيرة عن تقدم الصفوف ما دامت قادرة على تقييم الماضي والحاضر والمستقبل على صعيد واحد، وحامية لأعراف المجتمع وتقاليده وحركيات تاريخه، وماهرة في تفسير تكرر التاريخ باتجاه تجديد الذات!؟

ومن المفيد أن نذكر مرة أخرى، بأن مسؤوليتنا الأساسية اليوم، هي إشعار وجدان الأجيال بمؤثرات الكدح المبذول منذ عصور مديدة، والعقائد الإيمانية المتشربة في النفوس، والثقافات المتأصلة الجذور على قدر أعماقها في ذاتها... وذلك بتطوير حس التاريخ في الأمة. فإذا نجحنا في هذا، فلن يخطر على بال أحد بعد جيلين أو ثلاثة أجيال، أن يعيش فوق تراب هذه البلاد، ثم يستعير لمؤسسات الشعب المتنوعة مصادر أجنبية عن حركيات روحنا ومعنانا.

نعم، نحن نجلب عناصر حياة المستقبل من ماضينا، فإن استطعنا أن نعجنها في معاجن ثقافتنا الذاتية بنور الدين وضوء العلم، فقد جهّزنا خميرةَ أبديتنا. ■

(*) الترجمة عن التركية: عوني عمر لطفي أوغلو.

د. محمد السقا عيد*

تتبعْ خطاه ﷺ، وسِرْ في أثره.. لا تنس لحظة واحدة أنك معه، يقود خطاك، ويحث روحك إلى العلا... ولا تتعثر بأصحاب الخواء الروحي من ذوي النفوس المقفرة والقلوب المجدبة.

* * *

(الموازين)

أسرار الدموع

١

العين كرة صغيرة تسكن في تجويف في الجمجمة المسمى "محجر العين"، ويختفي أكثرها في هذا المحجر فلا يظهر منها سوى ذلك الجزء الصغير الذي يُرى في الوجوه. وهذا الجزء الصغير الظاهر قد يوحي ببساطة التركيب، وهو في واقع الحال يخفي وراءه -من روعة التصميم ومحكم النسيج- ما يفوق كل تصور.

هل نظرتَ إلى التراكيب المختلفة التي يحويها هذا الحيز الصغير، وهل تأملتَ ذلك التناسق في عمل تلك الأجزاء المختلفة؟ وهل تأملت إبداع الصانع الذي لم يفُتْه شيء، فكل شيء عنده بمقدار؟

تأمل كيف تنزلق الجفون فوق العين، دون احتكاك، بفضل المادة الزيتية التي تفرزها الغدة في غضروف الجفن... حركة متسلسلة لا يكاد يشعر بها الإنسان.

لم تكن الدموع في يوم من الأيام دليل ضعف ولا استكانة، ولكنها دائمًا وأبدًا تظل رمزًا للنبل الإنساني في أرقى مشاعره والتعبير عنه.

فالدموع تحمي القرنية وتعالج الاكتئاب وتجعل العين جميلة، ومن لا تدمع عيونه يصاب بجفاف العين وبالتالي يحتاج إلى العلاج.

تأمل هذه السوائل التي تخرج من مآقينا حينما تُلم بنا الأفراح والأتراح... ما كنهها وما حقيقتها؟ إنها ليست إلا سائلاً غامضًا يجعل البريق في عيوننا يستمر... إنها الدموع.

وما أدراك ما الدموع! لقد أجريت الأبحاث الحديثة على هذا

السائل لفهم تركيبه ومحتوياته، ومازال العلم يخبئ في جعبته الكثير والكثير عنه مما لا نعرفه.

هـذه القطـرات المتلألئـة التـي تترقـرق في العيـن عندما تجيش النفس بشتى الانفعالات، هل خُلقتْ عبثًا؟ لماذا نبكي ومتى نبكي؟ أمور لا نعرفها عن الدموع.

وقبـل الحديث عـن الدموع، يجب أن نصـف العين التي هـي مـن نعـم الله ﷻ علينا، لكـي نرى عجائـب الخالق وهي إحدى الحواس الخمس للإنسان.

طبقات جدار كرة العين

يتكـون جدار كرة العين، الذي لا يتجاوز سـمكه المليمترين من ثلاث طبقات:

الطبقة الخارجية (الليفية): وتتكون من جزء أمامي يسـمى "القرنيـة" ويكـوّن خُمـس جـدار العيـن، وجـزء خلفـي وهو "الصلبة" ويكوّن أربعة أخماسها. والجزءان ملتحمان أحدهما بالأخر، بحيث يتداخل الجزء الأمامي في الجزء الخلفي كما تتداخل الساعة في الإطار المعد لها.

الطبقة المتوسطة: وهي المغذية للعين، وتتكون أساسًا من أوعيـة دموية تحمل الغذاء إلى أجـزاء العين المختلفة، ومنها تأتي سـوائل العين التي تغذي القرنية وعدسة العين، وتحافظ على وجود ضغط طبيعي في العين.

الطبقة الحساسة: وهي شبكية العين (Retina)، وهذه الطبقة شفافة بالرغم من أنها تتكون من عشر طبقات. وتحتوي على نهايات عصبية حساسة للضوء، وتتجمع هذه النهايات العصبية معًـا لتكـوّن العصـب البصـري (Optic Nerve)، وهي الغلاف الداخلي الحساس للضوء والذي ترتسم عليه صورة الأجسام.

الجهاز الدمعي

يتكون الجهاز الدمعي (Lacrimal Apparatus) من جزئين:

١-الجزء المفرز للدموع (Secretory Part):

• ويشـتمل علـى الغـدة الدمعيـة التي توجد فـي تجويف مخصص لها في عظمة الجبهة الموجودة في سـقف الحجاج (Orbit) عند الناحية العلوية الطرفية. وتتكون من فصين علوي وسفلي، وهما عبارة عن مجموعة فصيصات صغيرة بها غدد متكيسة (Acinious) تُفتح مباشرة على قناة لإفراز الدموع.

توجـد حوالـي ١٠-١٥ قنـاة صغيـرة لإفـراز الدموع تقع بيـن الفصين العلوي والسـفلي، وتفتح على سـطح الملتحمة

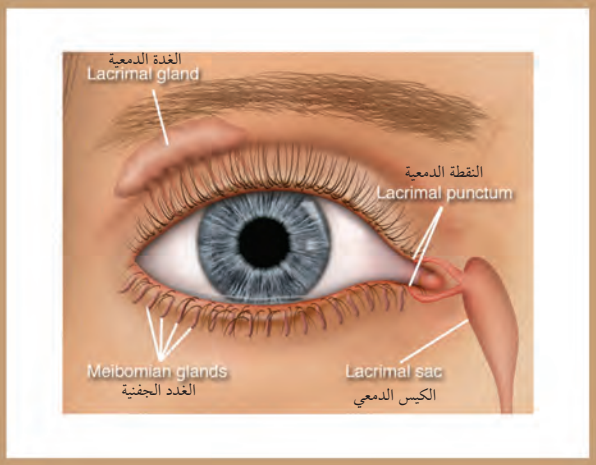

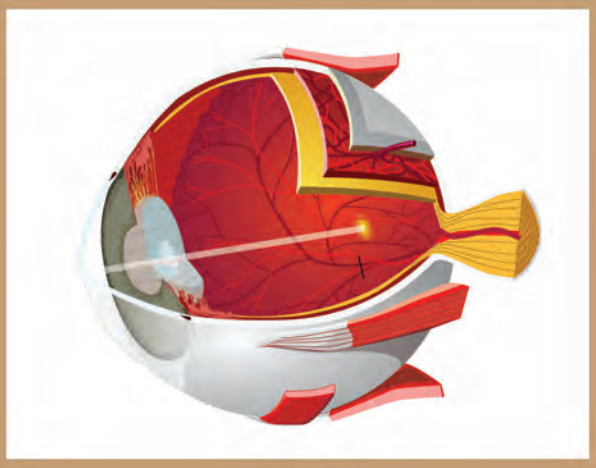

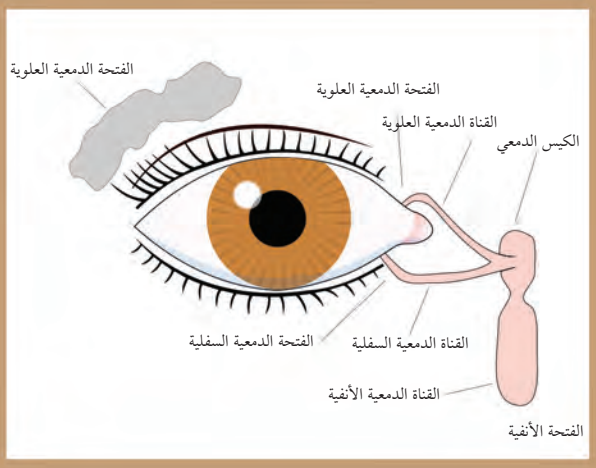

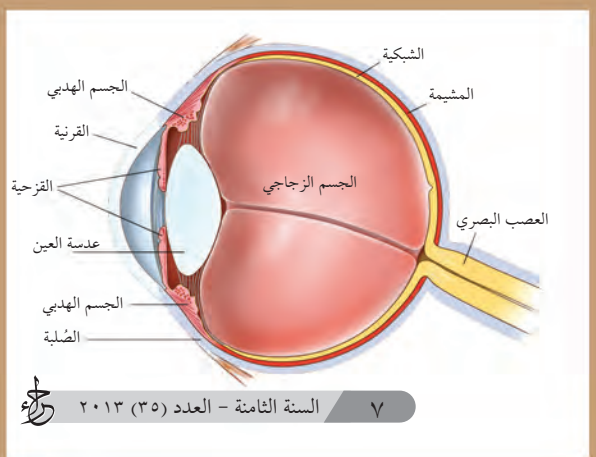

المغطي لفص الجفن السفلي.

• الغدد الدمعية المساعدة يبلغ عددها ٤٨ غدة، ٤٠ منها في الجزء العلوي من العين، و ٨ تسكن في الجزء السفلي.

٢–الجزء المصرف للدموع (Drainge Part):

ويتكون من النقطة الدمعية، والقنوات الدمعية، والكيس الدمعي، والوصلة الدمعية الأنفية.

البكاء بين القرآن والسنة النبوية

البكاء في القرآن الكريم: وردت مادة البكاء في القرآن الكريم ستّ مرات: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾(النجم:٤٣)، ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾(الدخان:٢٩)، ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾(مريم:٥٨) {س}، ﴿وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾(الإسراء:١٠٩)، ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(التوبة:٨٢)، ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾(يوسف:١٦).

ووردت مادة الدمع في القرآن "مرتين": ﴿تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا﴾(التوبة:٩٢)، ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾(المائدة:٨٣).

البكاء في السنة النبوية الشريفة: في حديث ابن عباس ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: "عينان لا تمسهما النار، عين بكت في جوف الليل من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله تعالى" (رواه الترمذي).

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "لا يلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع، ولا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم" (رواه الترمذي).

ولا ننسى بكاء النبي الكريم لوفاة ابنه إبراهيم، مما يدل على أن البكاء ليس عيبًا أو نقصًا في الرجل -كما يظن البعض- إنما هو عبادة نتقرب بها إلى الله تعالى.

وهذا هو أستاذنا العالم الرباني محمد فتح الله كولن -أحد أشهر علماء الإسلام المصلحين ودعاته المعاصرين- يكشف لنا بعضًا من تلك المعاني فيقول في مقال له في مجلة حراء العدد:١٥، بعنوان "هذا موسم البكاء":

"إن قطرات الدمع التي تنهمر لوجه الله ﷻ، هي أصدق أنات القلب الذي يمور بالحب الإلهي مورًا. وإنّ مَن تأججت أضلاعه بنيران الوجد، تلألأت عيناه بالدموع، أما من أقفرت عيناه وتصحرت، فلا أثر للحياة في جوانحه.

إن الحزن والبكاء من أبرز الخصال التي اتسم بها الأنبياء الكرام، فقد كان لآدم ﷺ أنين متصل مدى الحياة، وها هي دموع نوح ﷺ قد تحولت إلى طوفان غمر سطح الأرض. أما مفخرة بني الإنسان عليه أفضل الصلاة والسلام فقد نظم قصيدة لواعجه وأحزانه بالدموع، ولذلك فلعلنا لا نخطئ إذا سميناه "نبيّ الدموع والأحزان". ألا تذكر يوم بكى بحرقة حتى الصباح تاليًا الآيتين الكريمتين مرة بعد أخرى: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(المائدة:١١٨)، ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(إبراهيم:٣٦). فلما أخبر جبريلُ ﷺ ربَّ العزة ﷻ بسبب بكائه -وهو أعلم- زفّ إليه بشرى أثلجت صدره، وسكّنت خفقان قلبه وأنين وجدانه: "يا جبريل، اذهب إلى محمد وقل: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك. (صحيح مسلم)".

"... إن البلبل لا ينقطع عن النواح والأنين حتى وإن حطّ على الورد، فكأنه قد خلق لكي يصدح بنغمات الهم الدفين والحزن المتصل. أما الغربان فلا يحمل نعيقها أدنى معنى من ذلك الهم والحزن، وأما نعيب البوم فهو أبعد ما يكون عن مثل هذه المعاني النبيلة".

ويختتم الأستاذ كولن مقاله بقوله: "ناشدتكم الله أن نهبّ معًا لنكون سقّائي دموعٍ في هذه الصحراء المترامية الأطراف، المتآكلة من الجفاف، فنقيم موائد زاهية حديثة العهد بالسماء، تقدم للرائح والغادي فواكه غضّة طريّة نضيرة، كلماتها شبوب شوق ولهيب أشجان، ونغماتها أنين قلب ونحيب وجدان".

أنواع الدموع

يوجد نوعان أساسيان من الدموع ينبثق منهما جميع الأنواع الأخرى هما:

أ–الدموع الأساسية أو الصِّحية: وهي دموع إجبارية وثابتة في نوعيتها وكميتها. وهي التي تفيض من عيون جميع البشر، تفرزها الغدة الدمعية بانتظام، وتصرف من العين أيضًا عن طريق مجرى الدموع، وهي تتسلل إلى داخل الأنف والحلق. وليس هناك أدنى خوف من هذه الدموع التي تذرفها العين بغزارة.

ب–الدموع الانعكاسية: وهي تحدث إما نتيجة انفعال فيتحكم في الجهاز العصبي، أو نتيجة تعرض العين لزيادة في الضوء أو لمادة تؤدي إلى تهيّج العين مثل النشادر أو البصل، أو بعض الغازات أو الكيماويات... إلخ.

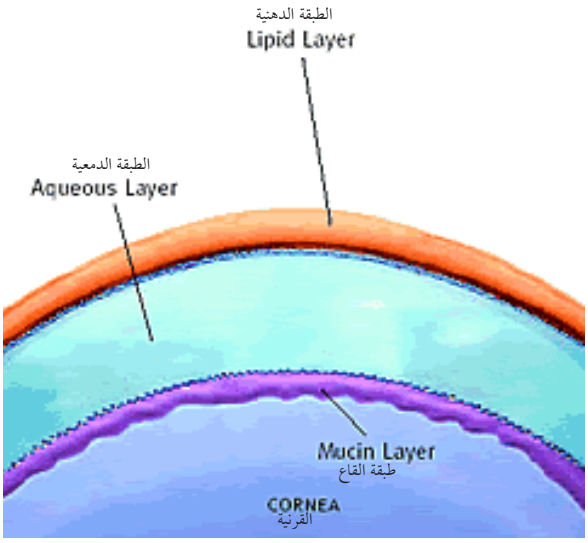

مكونات الدموع

إذا حلَّلت الدموع هذا السائل، فإنك ستجد مكونات راقية جدًّا هي الأكسجين، والصوديوم، والبوتاسيوم، والكالسيوم، والماغنسيوم، والأمونيا، والآزوت، وفيتامين ب١٢، وفيتامين (ج)، والأحماض الأمينية، والحديد، والنحاس، والزنك، والمنغنيز، والكلورين، والفسفور، والبيكروبونات، وحمض البوليك، والأنزيمات، وستّين نوعًا من البروتينات.

• ويؤلف الماء ٩٨-٩٩٪ من السائل الدمعي، أما التوتر السطحي فيبلغ ٠,٦-٠,٧ من توتر الماء السطحي، والمشعر الانكساري يبلغ ١,٣٣٧.

• ويميل الدمع قليلاً نحو القلوية.

هذه المكونات تزداد تعقيدًا عند ملامستها للأغشية المخاطية في القناة الدمعية، فيضاف إليها الدهنيات والسكريات والأحماض الأمينية، كذلك الإفرازات الدهنية الغنية بالكولسترول وثلاثي الجلسرين... وكل هذه الإفرازات تغذي العين بأكملها وتحميها من الالتهابات عند البكاء.

طبقات الدموع

الدموع من أهم الوظائف الفسيولوجية للعين. وقد وضعها العلماء والباحثون موضوع دراستهم وبحثهم، واستطاعوا بالتالي تصنيفها إلى ثلاث طبقات من الناحية التشريحية، الأمر الذي سهل عليهم معرفة الأمراض التي تصيب بعض أجزاء العين وطرق معالجتها.

• **طبقة ميكويد** (Mucoid) (İnner Mucin Layer): وهي التي تُمكِّن الدمع من الانتشار على القرنية، وهي تأتي من خلايا على سطح العين.

• **طبقة مائية متوسطة** (Midlle Aqueous Layer): وهي التي تحفظ سطح العين مبللاً والرؤية سليمة.

• **الطبقة الثالثة** (Outer Lipid Layer): وهي طبقة خارجية زيتية من المُعتقد أنها تعيق التبخر، وهي تُفرز عن طريق غدد صغيرة على حواف الجفن.

وكما أن الدموع طبقات من الناحية التشريحية فهي كذلك طبقات من الناحية الفلسفية؛ فالنساء تملك نسبة ٦٧٪ من مجال إمكانية تساقط الدموع في كل الأوقات والمناسبات حتى السعيدة منها، كما أن نسبة ٦٢٪ ممن يعملون في الزراعة والأرض لا يعرفون الدموع.

أما أصحاب المراكز العليا، فنسبة صفر (٠)٪ إلى ٢٣٪ فقط هم الذين يمكن أن تنزل دموعهم لأسباب هامة وخاصة جدًّا. والدراسة التي أثبتت ذلك، تؤكد أن بتلك النسب سيعاني البشر في نهاية هذا القرن "من الأمية في المشاعر".

آخر الدراسات النفسية عن الدموع

خلصت هذه الدراسات إلى بعض الحقائق الهامة التي تهمنا والتي سنورد منها ما يلي:

• يتجدد فيلم الدموع داخل عينيك "١٣ ألف مرة" في اليوم الواحد، لذلك من لا يبكي أبدًا ولا تتساقط دموعه، فإنه يعاني حقًّا من ظاهرة مرضية غير طبيعية.

• هناك شعوب لا تبكي كثيرًا، حيث أثبتت الدراسات أن نسبة البكاء عند الشعب الفرنسي ٨٪.

• الذي يبكي، هو الذي يُمزق كل الأقنعة والاعتبارات وكل الأدوار الاجتماعية.

• إذا أحببت هذا النبع الغامض (الدموع)، فإنك تمسح قسوة نفسك على نفسها، وبالتالي على بقية البشر... لذلك دائمًا يقولون: "إن من لا يعرف الدموع لا يعرف الرحمة". وإن الذي لا يبكي فعندما يتألم فإنه يتألم أكثر، لأنه يشعر بالألم مرتين.

• الانفعالات المؤلمة والعنيفة لابد وأن تظهر من خلال العينين، وهي دائمًا ما تكون أقوى من أي حوار صادق، لأنها عبارة عن عبارات تترجم نبضات القلب تجاه الموقف.

إن نقطة الدموع التي تنساب من العين يوميًّا وبطريقة آلية،

ضرورية جدًّا لنظافة العين وتشحيمها... وإن اختلاج الجفون الذي يحدث ما بين عشر مرات إلى خمس عشرة مرة في الدقيقة، يعمل على توزيع الدمعة بالتساوي على قرنية عين الإنسان الطبيعي الذى يبكي حينما يشعر بذلك ولا يحبس الدموع.

ومن المؤكد أن الدموع لم تعد تُوزع كما يجب منذ أن أصيب الإنسان بحالة مرضية سميت بـ"مرض التمساح"، وهو البكاء بغزارة كلما جرى المضغ.

ابك بدون خجل

الدموع هي إهداء النفس للنفس، وعندما تبكي بدون خجل فقد وصلت إلى قمة النضج النفسي والذهني. فالدموع البشرية تروي النفس وتغذيها، إذ يفرز الإنسان العادي بمعدل ثابت حوالي نصف لتر من الدموع في العام، أي بمقدار ١,٥ سم مكعب في اليوم.

ومن هنا يجيء التساؤل عما إذا كانت هناك علاقة بين عدم ذرف الدموع والإصابة بالمرض. والإجابة بالطبع كما يقول العالم الأمريكي "وليم فري": "فالدموع تعمل على إخراج المواد السامة التي تولدها بعض حالات الانفعال، ولذا فإن حبس الدموع يُعرض الإنسان للإصابة بالتسمم البطيء".

البكاء بين الرجل والمرأة

أجرى الكيميائي "وليم فري" عدة دراسات وأبحاث مع فريق من زملائه، منها دراسة على ٣٣١ متطوعًا من الجنسين تتراوح أعمارهم بين ١٨-٧٥ سنة، وقد طلب من متطوع تسجيل يومياته عن البكاء لمدة ثلاثين يومًا. وقد أظهرت النتائج أن السيدات سجلن ٥,٤ حالة بكاء كاستجابة لجهد انفعالي خلال هذه المدة، على حين سجل الرجال متوسط ١,٤ حالة. واتضح من الدراسة أن ٧٣٪ من الرجال و٨٥٪ من السيدات بصفة عامة، شعروا بارتياح بعد البكاء.

من بين أفراد تلك المجموعة، لم يبك ٤٥٪ من الرجال و٦٪ من السيدات الذين يتمتعون بصحة جيدة.

أما أسباب البكاء الرئيسية للمرأة فقد تضمنت علاقات مع الناس، وغالبًا لانفصالها عن شخصية محبوبة. وكانت الانفعالات الأساسية هي الحزن بنسبة ٤٩٪ والفرح بنسبة ٢١٪ والغضب ١٠٪ وبينما عبرت معظم السيدات عن غضبهن بالدموع، فإن الرجال لم يفعلوا ذلك.

وأكدت تجارب "فري" أن الدموع تخلص الإنسان من مواد سامة يصنعها الجسم كله في حالة توتر. وكشفت الدراسة أن تركيب الدموع يختلف تبعًا لمسبباته وللأشخاص الباكين أيضًا. فقد تبين أن دموع الفرح -مثلاً- تحتوي على نسبة كبيرة من الزلال تزيد بحوالي ٢٥٪ عن الدموع الأخرى. كما اتضح أن نوبات البكاء تحدث بشكل أساسي بين السابعة والعاشرة مساءً، وأن احتمال البكاء أثناء مشاهدة فيلم مؤثر أكثر في المساء عنه في الصباح.

من فوائد الدموع

- تساعد على مرونة حركة الجفون العلوية والسفلية.
- تساعد أيضًا على حمايتها كأداة لتطهيرها بصورة مستمرة.
- تساعد على حمايتها من الإصابة بالجفاف.
- كما تساعد على طرد أي مواد مهيجة للعين، مثل الفلفل والدخان أو مواد صلبه كالأتربة.
- وتقوم عن طريق الغدة الدمعية بإدرار الدموع، وطرد هذه الأجسام الغريبة، لتعود إلى شفافيتها وتنظيفها.
- كما تقوم الدموع على شفافية القرنية وحمايتها عن الجفاف.
- تساعد على وضوح الرؤية وقوة الابصار ودقتها.
- تخلص الجسم من المواد الكيماوية المتعلقة بالضغط النفسي.

فابكِ عزيزي القارئ كما تريد، ابكِ بدون خجل، ففي البكاء شفاء وعلاج لكثير من الأمراض.

ولتكن لنا مع أنفسنا وقفات ووقفات، نتأمل فيها ونبحث عن كوامن وأسرار خلق الله ﷻ للإنسان، لنقف خاشعين خاضعين متذللين للخالق جل شأنه، نقر بوحدانيته ونذعن له بالاستسلام والطاعة.

فالله سبحانه لم يخلق أي عضو -في أجسامنا- إلا بإحكام وتقدير، لكي يلائم طبيعة وظيفته. فسبحان المبدع الخالق جل شأنه، وصدق الله العظيم القائل: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ﴾(الذاريات:٢١). ■

(*) استشاري في طب وجراحة العيون، وعضو الجمعية الرمدية المصرية.

أ.د. بركات محمد مراد*

التمثل والإبداع
في العمارة الإسلامية

تتجلى عبقرية المسلمين الفنية في المباني والعمائر المدنية مثل تجليها في المساجد والأبنية الدينية، بل لقد أضفى المسلمون طابع الفخامة على كثير من المنشآت ذات الأغراض المدنية العادية، كالمدارس، والدكاكين، والفنادق، والمارستانات، ومواضع الاستراحة أو الخانات على طول الطرق التجارية، والحمامات، وأسبلة المياه في الشوارع، وحتى مخازن البضائع الكبيرة المعروفة بـ"الوكائل".

لقد أكسب الفن الإسلامي تلك العمائر -كما يشير "إيتان سوريو" في "الجمالية عبر العصور"- مسحة جمالية مرموقة، تظل أشكالها الجوهرية من أخص خصائصه وأبرز صفاته. وإذا كانت روح الإسلام قد أعطت تلك العمائر فكرًا جماليًا ذا مسحة روحية، فإن تلك المسحة لم تنزع عنها النكهة الحسية الحية والإثارة للتأمل والتخيل.

ويشير الباحث الفرنسي "أوليج جرابار" إلى أنه ينبغي أن

نلتمس أسباب تطور العمارة الإسلامية في عدد من الخصائص الاجتماعية والدينية التي يتميز بها العالم الإسلامي، كالأهمية التي أضفاها الإسلام على العمل إلى جانب الإيمان، مما شجع الناس على القيام بنشاط اجتماعي، وكذلك القوة التي وصلت إليها طبقات المياسير في المدن الإسلامية بما لها من ذوق ومن حاجات خاصة.

كما يؤكد في مكان آخر، على أن القدرة الفريدة لدى المسلمين على تحويل عناصر شكلية أو وظيفية عديدة أخرى إلى شيء إسلامي، مع الاعتراف بأن هذه التوليفات كانت أول أمثلة هذه القدرة الفريدة وأقواها تأثيرًا.

ولا أدل على عبقرية المسلمين في العمارة من قدرتهم على توفير المرونة اللازمة. فبالإضافة إلى المعنى التاريخي لمسجد "الصحن" ذي الأعمدة كانت له دلالة أخرى، ذلك لأن المسلمين عندما ركزوا جهودهم على تنظيم المساحة الداخلية للمسجد بحيث تناسب الحاجات المتغيرة لجماعة في طور التوسع، جعلوا من المسجد منشأة ذات مرونة ظاهرة، وذلك بفضل بساطة تكوينه التي أتاحت إمكانية توسيعه أو تضييقه.

ففي قرطبة -مثلاً- أضيفت ثلاث زيادات إلى الجامع الأصلي. وتوجد هذه الزيادات أيضًا في جوامع الكوفة والبصرة وبغداد والقاهرة. أما المثال الوحيد الذي يمكن إثباته لحالة التضييق بين المباني الكبرى على الأقل، فهو المسجد الأقصى في القدس. ومن الناحية النظرية، تعتبر إمكانية تعديل الشكل بما يتفق وحاجات الجماعة، ظاهرة حديثة بصورة ملحوظة لم تكن معروفة في العمائر السابقة أو المعاصرة.

وفي البلاد الإسلامية التي يميل أهلها إلى المحافظة -كالمغرب الأقصى- نجد البهو ذا الأعمدة، ظل لعدة قرون الشكل المعماري الوحيد المستعمل في إنشاء المساجد، بينما نجد في الغالب بالنسبة للبلاد التي فتحها المسلمون حديثًا -أو تحولت إلى الإسلام فيما بعدُ مثل الأناضول والهند- أن البهو ذا الأعمدة، كان الصورة الأولى التي بني عليها المسجد، وأن هذه الصورة ترمز -دون شك- لأنقى خصائص الإسلام، ولكنها كانت من البساطة بحيث يمكن فيما بعد تطويعها لأي تقليد معماري.

وفي الجمهوريات الإسلامية في آسيا الوسطى، نجد منشآت معمارية ذات بوابات ضخمة وذات عقود عالية مدببة. فقد خلف لنا المعماريون المسلمون، بوابات حجرية مثقلة بالزخارف في مساجد سمرقند وطشقند وبخارى وغزنة وأزربيجان، ولجؤوا أحيانًا إلى تزيين الأبواب بإنشاء مآذن عالية على جانبي المدخل أو على أركان جدار المدخل.

وجدران المساجد عالية كأنها الأسوار، تتوسطها الأبواب وتزينها -أحيانًا- فتحات في شكل نوافذ ذات عقود. فإذا دخلت من الباب، وجدت نفسك في صحن واسع شبيه بالفناء، تحيط به البوائك ذوات العقود المدببة. أما مآذن هذا الطراز فغالبها مستدير، ومنها ما هو مضلع ذو ستة أضلاع، وأحيانًا يتفنن المعماري في التضليع، ولا يكون للمئذنة في معظم الأحيان إلا شرفة أذان واحدة في نهايتها.

المئذنة في العمارة الإسلامية

وتعتبر المئذنة من عناصر الإبهار في العمارة الإسلامية، وذلك في جمال نسبها المعمارية ورشاقة تكوينها، بالإضافة إلى أن أشكال المآذن قد تعددت وتباينت واختلفت مواد البناء فيها باختلاف موطنها؛ ففي بلاد الشام نشأت الفكرة، واحتفظ المغرب والأندلس بصورتها الأولى المربعة، وفي مصر اتخذت طابعًا جديدًا في عصر دولة المماليك قوامه ثلاثة طوابق، ولا يخلو طابق من هذه الطوابق الثلاثة، من الزخارف الهندسية المحفورة على الحجر، من خطوط متعرجة أو دوائر متقاطعة أو نجوم متشابكة، كما يفصل بين الطابق والآخر، شرفة تحملها مقرنصات على شكل خلايا النحل.

واتخذت المآذن في العراق النظام اللولبي أو المخروطي الذي تدور حوله مراق حلزونية. وفي إيران والهند اتخذت المآذن أشكالاً أسطوانية تضيق أقطارها كلما ارتفعت إلى أعلى، كمئذنة قطب منار بدهلي ومئذنة ضريح تاج محل في "أجرا".

أعطت هذه المآذن -كما عند محمد عبد السلام العمري- صفة فاحصة لهذه المساجد الإسلامية بجمال وشكل وسحر، وهي ترتفع كالسهم "المسلة الفرعونية" في الفضاء السماوي الرباني خلفها، كأنها أذرع ممتدة إلى الله ﷻ تطلب المزيد من الرحمة.

ويكاد تصميم المئذنة المعماري، أن يكون نحتًا أخضعت فيه التقنية الإنشائية للتعبير الفني المعماري الذي يهدف إلى الصعود والتسامي، فلم يأبه المعماري المسلم بالمصاعب الإنشائية العويصة التي صادفته في سبيل تحقيق فكرته الفنية التعبيرية، فقد ذلل له الإيمان المصاعب وحقق المعجزات.

القصور في العمارة الإسلامية

اتسمت المنشآت المعمارية الإسلامية بالضخامة، معبّرة عن طابع الحياة الحربية الخشنة، وخير مثال على ذلك، عمائر مدينة "سامرا" التي اتخذت نمطًا خاصًّا تأثرت به المدن العسكرية في العالم الإسلامي، خصوصًا في مصر والشام. كذا مدن الثغور على الحدود مع بيزنطة، وفي الأندلس في المناطق المتاخمة للممالك النصرانية، حيث خصت بالأسوار العتيدة والأبراج والمزاغل، خصوصًا في مدن المغرب.

وقد كان معاوية بن أبي سفيان، أول من أنشأ في دمشق قصرًا منذ أن كان واليًا على الشام، واستمر قصر معاوية يتوارثه الخلفاء الأمويون...

تقوم القصور الأموية، وفق مخطط متشابه وشكل معماري موحد، على مبدإ السور المحيط والصحن الداخلي الذي تشرف عليه أروقة، بعضها غرف في طابق أو طابقين، ويأخذ السور الخارجي طابعًا حصينًا بعيدًا عن الفتحات والزخارف. ومع ذلك فإن الأبراج لم تكن ضرورية لوظيفة الدفاع والتحصن، إذ البادية كانت آمنة دائمًا، بل إن سكانها كانوا موالين وأنصارًا للأمويين، ومن الممكن أن تكون الأبراج لتدعيم الأسوار من جهة، ولإظهار البناء بمظهر المنعة والقوة.

وسوف تكون الغلبة للطابع العسكري بعد ذلك على قصور الخلفاء والأمراء، كما هو حال قصر "بلكوارا" الذي أقامه الخليفة المتوكل قرب سامرا، والذي تأثر في تصميماته بإيوان كسرى.

هذا وقد اختلفت الآراء في تحديد مصادر استيحاء الشكل المعماري للقصور الأموية، فمن قائل إنها قريبة الشبه بالطراز الهلينستي والبيزنطي الذي تجلى في دير الكهف وقلعة عنتر والأندرين، أو الطراز الساساني، أو إنها مستمدة من المنشآت التي أقامها العرب الأوائل في الحيرة وهم المناذرة الذين أقاموا الخورنق والسدير.

ومن هنا ففن العمارة الأموي، هو فن أصيل نشأ في غالب الأحيان ووفق الظروف المناخية القاسية وبالمواد المتاحة المنسجمة مع هذه الظروف والتقاليد، واستعار متفننًا في عمارته بما انتقاه من تقاليد زخرفية ومعمارية شائعة، رومانية أو ساسانية أو بيزنطية.

لقد أكسب الفن الإسلامي العمائر، مسحة جمالية مرموقة، تظل أشكالها الجوهرية من أخص خصائصه وأبرز صفاته. وإذا كانت روح الإسلام قد أعطت تلك العمائر فكرًا جماليًّا ذا مسحة روحية، فإن تلك المسحة لم تنزع عنها النكهة الحسية الحية والإثارة للتأمل والتخيل.

ويجب أن نلاحظ أن الخلفاء الذين جاؤوا بعد الوليد، لم يقيموا في دمشق بصفة متواصلة، بل أقاموا في قصور تقع على تخوم البادية قريبًا من الأراضي الزراعية، لعدم ألفتهم التامة لحياة المدينة، ولتوالي الأوبئة والأمراض على دمشق. وكذلك لقربهم من القبائل العربية التي تسكن البادية، والتي يسعى الخلفاء يومئذ للاحتفاظ بولائها. فضلاً عن أن هذه البوادي كانت مدرسة للأمراء الأمويين، يتكلمون العربية الخالصة من الهجنة أو الرطانة الآرامية كما يقول ابن عبد ربه في "العقد الفريد".

لذلك فإن المنشآت الأموية في البادية، والتي يطلق عليها اسم "البوادي"، لم تكن على مستوى واحد من الاكتمال. فلقد ابتدأت -حسب رأي لامنس- على شكل سرادق، ثم تطورت فأصبحت تضم حمامًا ومسجدًا، ثم لا تلبث أحيانًا أن تتوسع لكي تضم قصرًا يليق بالخليفة، ويستتبع ذلك استغلال الماء في الاستحمام والزراعة، وإنشاء الأقنية، وإقامة المنشآت للمزارعين والحيوانات، كما هو الأمر في قصر الحير الغربي.

ولا ننسى أن المهرة من الفنانين العرب المسلمين، قد بلغوا الغاية في التفنن وفي التعقيد الزخرفي في مزج المنظر الطبيعي بالبناء، وإحداث تأثير جمالي يحرك المشاعر ويهز النفوس؛ فدار الزينة كان قصرًا ريفيًّا لبني عباد، يشتمل بالأشجار، وتكتنفه الأزهار، وتحيط به البساتين النضرة ذات الزهور العطرة والألوان الزاهية.

رعاية الفنون في مسيرة الفن الإسلامي

ويجب أن لا ننسى دور المهتمين برعاية الفنون الإسلامية في تقدم وازدهار هذه الفنون، خاصة وأنهم قد وفروا إمكانيات العمل، منها الأموال على شكل رواتب، أو أدوات الرسم

والنقش، أو ألوان وأوراق، أو توفير المكان المناسب... وقد وصلَنا العديد من الإشارات التاريخية حول دور رعاية الفنون في مسيرة الفن الإسلامي، وخاصة الحكام والسلاطين والوزراء والأمراء، الذين حكموا الدولة الإسلامية في عصروها المختلفة.

ولا شك أن اهتمام حكام الدولة الأموية بالخروج إلى الصحراء، أدى إلى فكرة إنشاء الاستراحات والقصور الصحراوية، وأن مجموعة هذه الأبنية كانت تخضع لعدد من الأفكار التي فرضها الرعاة القائمون على تنفيذ العمليات الفنية. فجاءت هذه الأبنية تعكس ذوق رعاة الفن، بالإضافة إلى كونها تؤدي وظيفة محددة. من هنا نلاحظ أن ذوق رعاة الفن، كان يظهر من خلال توجيهاته للفنان أثناء أداء واجبات العمل الفني أو قبل قيامه به. فلولا حرص هؤلاء الرعاة ورغبتهم في البناء، لما وجدت هذه المباني وبهذا الشكل الذي وجدت عليه، إضافة لتأثير العقيدة الدينية التي كان يعتنقها هؤلاء في تغييب العناصر الفنية التي ميزت أعمال الفنان في العصور السابقة على الإسلام. وقد حاول الفنان أن يتخلص من الرموز العالقة بفنه، التي لها علاقة بمعتقدات دينية أو فكرية غير ما يعتقده راعي الفن الجديد؛ نضرب أمثلة على ذلك بمنتجات الخزف ذي البريق المعدني، وكذلك المنسوجات الإسلامية التي كانت تحوي قبل الإسلام رموزًا دينية ما لبثت أن اختفت بعد الإسلام.

ولقد أقام عبد الملك بن مروان عام (٧٢هـ/٦٦٩م) قبة الصخرة المقدسة، ورصد لبنائها خراج مصر لسبع سنين. وتعتبر "قبة الصخرة" عند معظم مؤرخي الفنون، أعظم العمائر الإسلامية في الجمال والفخامة وإبداع الزخرفة، كما تمتاز عنها ببساطة التصميم وتناسق الأجزاء. وقد روعي في تصميمها أن يكون ملائمًا ليحيط بالصخرة المقدسة في الحرم الشريف، وهي تتكون من مبنى حجري مثمن الشكل، قوامه تثمينة خارجية، وبداخلها تثمينة داخلية، وبين التثمينة الداخلية والدائرة المقام عليها القبة، رواق، وقد خصصت هذه الأروقة للصلاة ولمرور الناس حول الصخرة.

ومن آيات الإعجاز المعماري في تصميم بناء قبة الصخرة، أنه روعي فيه أن يكون في دائرة دعامات القبة لفت بسيط، حتى لا تحجب الأعمدةُ الواقفة أمام الرائي الأعمدةَ الأخرى المقابلة في الطرف الآخر. ولذلك يتسنى لمن يدخل في أي باب من أبوابها، أن يرى جميع ما بها من الأعمدة والأكتاف، سواء فيها ما كان أمامه تمامًا، أو ما كان في الجهة المقابلة.

المدارس والخانات في العمارة الإسلامية

أما المدارس كمنشآت معمارية، فلم تنتشر في بلاد الشام إلا منذ النصف الثاني للقرن الحادي عشر، وإن ما بقي منها إنما يرجع إلى عهد السلاجقة أنفسهم، وخاصة المدرسة النظامية التي أنشأها نظام الملك في بغداد، التي تكاد تكون أشبه بالجامعة، وتخضع لنظام معماري مختلف عما ظهر في دمشق. إن ترتيب المدارس الشامية على اختلاف أشكالها يبقى متقاربًا، فهي مؤلفة من قاعات للتدريس وحجرات للأساتذة والطلاب، ومن مصلى وميضآت، وقد تتضمن مدفنًا مقببًا لمنشئ المدرسة، كما تتضمن إيوانًا لممارسة التدريس في الهواء الطلق أيام الصيف.

ولقد ظهرت في بلاد الشام وفي العهد المملوكي -ولأول مرة- نظام المدارس المصلبة، وذلك بانفتاح أربعة أواوين على صحن المدرسة الداخلي، لتسهيل تدريس الفقه حسب المذاهب الأربعة. ولقد انتشر هذا الشكل المصلب فيما بعد، في المدارس المصرية التي كانت تستعمل من قبلُ كمساكنَ خاصة، وكثيرًا ما كانت تحوّل إلى مدارس.

ولعل أقدم خان أنشئ في العهد الإسلامي، هو الخان الذي بناه هشام بن عبد الملك عام ٧٢٨م على مقربة من قصر الحير الغربي، ولم يبق من هذا الخان إلا بوابته الحجرية الضخمة التي أعيد بناؤها في متحف دمشق، وقد نقش على ساكفها (Architrave) كتابة بالخط الكوفي تبين اسم المعمار "ثابت بن أبي ثابت". وتاريخ الإنشاء، رجب تسع مائة. وليس بإمكاننا تحديد الوصف المعماري لهذا الخان، ولكن الخانات الشامية تجد أشكالها المطابقة واضحة في الأندلس، حيث نراها مجرد فنادق مؤلفة من نزل وسوق وصحن محاط بالأروقة، وتنفتح تحت الأروقة غرف، ومدخل الفندق مفتوح في وسط أحد الجهات بباب عريض. وثمة بوابة ذات قوس كبير ودهليز يسبق المدخل، ومن أمثلة هذه الفنادق، فندق التطوانيين في فاس، وفندق مخزن الفحم في غرناطة. ■

(*) رئيس قسم الفلسفة والاجتماع، كلية التربية، جامعة عين شمس / مصر.

أ.د. الشاهد البوشيخي*

من القرآن إلى العمران

"العمران" هو مصدر من عمر الأرض يعمرها عمارة وعمرانًا. وتطلق على الاسم كما تطلق على المصدر. وإن كنا نأخذه بالمعنى المصدري، فهو قابل لأن يؤخذ بالمعنى الاسمي كذلك. ونحن حين نأخذه بالمعنى الاسمي، فإنه يصدق على ما تحقق نتيجة المعنى المصدري. فكل الإنشاءات المعنوية والحسية التي بها يقوم الإنسان فيعبد بها الله تعالى ويقوم بوظيفة الخلافة... كل ذلك هو العمران.

ولعل النظر إليه هنا مصدرًا هو الأفضل، لأنه أبعد في المعنى من "العمارة"، إذ "الألف" و"النون" في العربية تفيد المبالغة، وهو عمارة جيدة كبيرة، فهي من مصدر عمر الأرض يعمرها، وحين توجد عمارة جيدة ممتازة -لأنها إما واسعة أو غير ذلك- تكون عمرانًا.

لكنها لا تكون كذلك إلا على أساس القرآن... وقد يسأل سائل: هل هذا الذي أنتجه البشر من إنشاءات مادية ومعنوية، ليس عمرانًا؟ أي كل ما يقوم به أناس، لا ينطلقون من القرآن؟ أقول في الجواب: يجوز الزعم -في نظري- أنه ليس بعمران، لأن العمران ضد الخراب. وأول ما قاله الراغب الأصفهاني في المفردات: العمارة نقيض الخراب، فكل ما فيه تدمير للبشرية بشكل من الأشكال -سواء على مستوى الأفكار أو على مستوى الإنشاءات المادية- لا يمكن أن يسمى عمرانًا، وكذلك إذا كان في الظاهر يفيد الإنسان، لكن لم يُقصد به ذلك، وإنما جاء عرضًا لمقصد آخر لا يعتبر عمرانًا، كفعل الكافر إذا لم يكن له إيمان: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾(الإسراء:١٩)، فقد يريد الآخرة ويسعى لها سعيها لكنه ليس مؤمنًا، فلا فائدة حينئذ، قال تعالى: ﴿أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ﴾(إبراهيم:١٨). فارتباط العمران بالقرآن إذن، ارتباط السبب بالمسبب، بحيث لا يمكن أن يكون عمران في الأرض إلا إذا وُجد القرآن، لأن الذي ينشئ العمران هو القرآن، إذ العمران مرتبط بالوظيفة الأصلية لآدم وبنيه، التي هي الخلافة والتي حددت في شيء اسمه "عبادة الله وحده لا شريك له"، التي تقررها الآية:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾(الذاريات:٥٦). إذن لكي

نتج العمران بالمعنى الاسمي، ولكي نقوم بالعمران بالمعنى المصدري، فنحن نحتاج إلى القرآن، ولابد لهذا، من القرآن.

إن الذين عمروا الأرض حقيقة، فإنما بهذا المعنى الذي أتحدث عنه، وإلا فبمعنى الإقامة والوجود في الأرض "عمّروها أكثر مما عمَروها" وهو معنى آخر. فهناك معنيان عند ابن فارس صاحب "المقاييس"، حيث جعل المادة تدور على أصلين: أصل له ارتباط بالصلاح وهو نقيض الخراب ونقيض الفساد وهذا الذي أقصد، وهذا هو الوارد في الآية: ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾(هود:٦١). وهناك معنى مرتبط بهذا، هو معنى البقاء في الزمان، والاستمرار والوجود بشكل من الأشكال وهو عمران. فإذن لابد من القرآن لإنشاء العمران.

نحن في زمننا هذا، قد ضعف عمراننا -إن لم نقل قد زال- حيث إن إسهام المسلمين اليوم في عمران الأرض ضعيف جدًّا، وحاجة البشرية جملة إلى من يعمر، بالغة الأهمية.

لماذا نكتشف ما نكتشف، ونسخّر ما نسخّر من طاقات في هذا الكون؟ الغاية أساسية، وهي التي تفرق بين العمل المقبول والعمل المردود، بين العمل النافع والعمل الضار، بين العمل المعمِّر والعمل المدمِّر... تفرق بينهما تفريقًا كاملاً. وكذلك الوسيلة التي يتوصل بها إلى تلك الغاية مهمة أيضًا، هل هي وسيلة مشروعة؟ هل هي مما أذن الله فيه أو أمر به، أم ليست كذلك؟ نجد الآن في مجال الوراثة -على سبيل المثال- كلامًا مهمًّا، لكن ما الطريق إلى اكتشافه، وما الغاية منه؟ هاهنا أيضًا كلام عريض طويل، لذلك فإن الهدف والغاية والوسيلة كل ذلك مهم. ونستطيع القول، إن المنهاج الذي يسلك بوسائل معينة للوصول إلى غاية معينة، أيضًا في غاية الأهمية. هل يراعي الفطرة التي هي الدين، التي هي الخَلق: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ﴾(الروم:٣٠)، ﴿وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ﴾(النساء:١١٩). الخَلق إذن هو الفطرة، الكيفية التي عليها فطرة الله ﷻ. والفطرة في العربية؛ اسم هيئة، أيْ الكيفية التي تم عليها الفَطر، وهذه الكيفية هي التي تمثل الخلق كما سواه الله تعالى بجميع جزئياته وكلياته، وتلك التسوية هي حالة الصلاح. ومن غيَّ أفسدَ، ولذلك كان تخصص الشيطان هو أن يغيّر الخلق، فيبتدئ ذلك صغيرًا ثم يكبر حتى إنا لنستطيع القول، بالخرص لا بالدرس. إنه حين يصل تغيير الشيطان في الخلق إلى درجة يختل فيها توازنه العام، يدمر الكون، لأنه إذ ذاك تكاد تكون السيادة للشيطان تامة، ولا تقوم الساعة إلا على لكع ابن لكع. الذي نراه بأم أعيننا، أن هذا التغيير مستمر في الخلق، الهندسة الوراثية، التلوث والاختلالات التي تحدث في طبقة الأزون وغيرهما، الاختلالات العامة في النظام العام... هناك نصوص صريحة بأن الساعة لن تقوم حتى تصير الجزيرة العربية جنات خضراء، وذلك سيكون نتيجة اختلالات معينة تصل إلى درجة جعل الوضع الذي كان قبلُ يصير وضعًا آخر.

إذن، الهدف والوسيلة والمنهاج كل أولئك ضروري ليصح بناء العمران حقًّا بميزان القرآن، لتسعد البشرية وتبتعد عن الشقاء: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى﴾(طه:١٢٣)، وعكس الهدى الضلال، وعكس السعادة الشقاء. ﴿فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى﴾، يعني أن الإنسان يهتدي ويسعد إذا حدثت هذه التحولات التاريخية.

ونظام السير بصفة عامة في الحياة البشرية وفي التاريخ، هو أشبه بالسير المَوجيُّ؛ فيه الصعود والهبوط، لكن هذا الصعود والهبوط معًا يتجه إلى عروج، عندما يكون الهبوط بالغًا، يبتدئ الصعود. ولذلك إذا اشتد الظلام فبشّر الناس بانبلاج الفجر قطعًا، لأنه سيحدث التحول، وذلك محض رحمة من الله ﷻ لا نتيجة أعمال صالحة لدى الناس. الله يمن على عباده بما شاء وقت ما شاء، وفعلاً حين منَّ الله علينا بمحمد ﷺ وبالقرآن، هل كنا فَعَلنا -في الجزيرة العربية أو في الكرة الأرضية- ما به نستحق محمدًا أو نستحق القرآن؟ أبدًا... ومثله قبل ذلك، ومثله في المصلحين بعد ذلك، فإنما هي رحمة من الله ﷻ، ونسأله بتلك الرحمة أن ينزل علينا الرحمة لينقذنا مما نحن فيه، ويرفعنا من هذه الوهدة إلى حيث نهتدي ونغدو بفضله تعالى.

هذا القرآن الذي لابد منه لبناء العمران. وفَهْم العمران وقياسه نحن بعيدون جدًّا عنه، ولا ندري كم المسافة التي تفصلنا الآن عنه، ولكن بفضل الله تعالى يمكن أن نقترب بسرعة من هذا القرآن ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾(الأعراف:٥٦)؛ ومعنى ذلك أن لو استجمعنا الشروط الضرورية اللازمة، فإنا بسرعة سنقفز، ويمكن أن نصعد صعودًا أسرع من الصاروخ في اتجاه القرآن الكريم، ونكتسب بسرعة تلك الصفات اللازمة للإنسان الذي يفعل بالقرآن، إنشاء العمران. ■

(*) الأمين العام لمؤسسة البحوث والدراسات العلمية (مبدع) / المغرب.

د. مهدية أمنوح*

موقع رسائل النور
من الفكر الإسلامي الحديث

لقد مثلت الفترة المعروفة بالحديثة -وهي المبتدئة من القرن التاسع عشر إلى أواسط القرن العشرين- فترة مصيرية في حياة الشعوب الإسلامية؛ إذ تراكمت إبانها تجارب عديدة ومتنوعة في كافة الميادين يمكن أن نسميها "المشكلات الحضارية"، نظرًا لكونها لم تجد لها حلولاً عملية بعد.

وأهم ما ميز الفكر الإسلامي الحديث في هذه الآونة، هو الالتفاف حول مائدة عامة من القضايا التي كانت تؤرق أعلامه وتجد صدى في تجاوب عوامه.

وقد كان لمبادئ الانعتاق والتحرر من التواكل والتحرر من الآخر، مساحة كبيرة في برامج هذا الفكر. إذ كان هذان العنصران في توافقهما واجتماعهما، بمثابة المكبلين للإنسان المسلم والمعيقين له عن الحركة. فنشأ من ثم ما يمكن أن نطلق عليه -وفق تعبير أحد الباحثين الإسلاميين- "صراعًا فكريًّا" عمّ حضوره كل البلاد الإسلامية بدون استثناء، أسفر عن ظهور مبادئ موازية للمبدأين الأولين من مثل: تحقيق الذات الإسلامية أو ترسيخ الهوية -عوض البحث عنها- والتقدم.

جاءت الدعوة إلى تحقيق الذات الإسلامية التي غاب حضورها الفعلي بشكل مريب؛ وذلك قصد التخلص من حالة نفسية عويصة للغاية تصور فيها الإنسان المسلم ذاته شبحًا مخيفًا أو ظلاً باهتًا، وإعداد وضع صحي تغيب فيه الدونية والانفصام، وذلك بإكساب الإنسان المسلم شجاعة كافية، كي يتقدم إلى العالم كله باسمه الحقيقي وشكله الأصلي وانتمائه الأصيل وهو عين المبدإ الثاني الذي سميته بترسيخ الهوية عوض البحث عنها، نظرًا لأن أصالة العالم الإسلامي لم تضع منه كي يبحث عنها، بل إنه كتمها إما قسرًا وقهرًا، أو ضعفًا وتواكلاً.

الصراع الفكري

وهنا تظهر مسألة الصراع الفكري على مسرح أحداث العالم الإسلامي، بإثارة مبدإ ثالث هو ضرورة التقدم وكيفية تحقيقه في غياب وصاية الآخر المذمومة والمحبطة للطاقات الإسلامية.

إذا ثبت هذا عند حديثنا عن الفكر الإسلامي بصفة عامة في هذا المجال، فإن هناك عناصر خاصة تميز نوعًا من الفكر الإسلامي عن نوع آخر، وذلك بحسب التنوع البيئي بما فيه السياسي والاجتماعي... والعلائقي في الداخل والخارج.

ولنا في "رسائل النور" التي ألفها الأستاذ سعيد النورسي أنموذجٌ مفصلٌ وشاهدٌ في هذا المقام. إذ هي عبارة عن مادة مكثفة من المقالات والخطب والخواطر والتحليلات والتفسيرات التي انصب جزء كبير منها -إن لم أقل جلها- في تفسير القرآن الكريم. وما تسميتها بـ"رسائل النور" إلا لكونها تطمح إلى الاقتباس من نورانية هذا الكتاب بدورانها في فلكه وقربها منه. فقد "شقت رسائل النور طريقها إلى الحقيقة في موضع العبادة ضمن العلم، وفتحت سبيلاً إلى حقيقة الحقائق في موضع السلوك والأوراد ضمن براهين منطقية، حجج علمية، وكشفت طريقًا مباشرًا إلى الولاية الكبرى في موضع علم التصوف والطريقة ضمن علم الكلام والعقيدة وأصول الدين".

والقارئ قد يحار تجاه التعريف للرسائل. ما هي هذه المادة بالضبط؟ أهي تصوف أم كلام، خاصة حينما يطلع على كلام صاحبها: "لقد كنت أقول، إن هذا الزمان ليس زمان الطريقة، فالبدع تحول دون ذلك، مفكرًا في حقائق الإيمان وحدها. ولكن الزمان أظهر أنه يلزم لكل صاحب طريقة -بل الألزم له- أن يدخل دائرة رسائل النور التي هي أوسع الطرق، وتضم خلاصة الطرق الاثنتي عشرة المهمة ضمن دائرة السنة النبوية الشريفة. حيث إن الذي غرق في الخطايا والذنوب من أهل الطريقة، لا يلج في الإلحاد بسهولة ولا يقهر قلبه. ولهذا فهم لا يتزعزعون أبدًا، فيمكنهم إذن أن يكونوا طلاب رسائل النور حقًّا، بشرط ألا يدخلوا -حسب المستطاع- في البدع ولا يرتكبوا الآثام التي تحول دون التقوى وتجرحها".

إنها ليست شيئًا من هذا، بل إنها هذا كله. فقد توسل الخطاب في رسائل النور بإمكانيات منهجية ومعرفية إسلامية كثيرة، خاصة منها منهج الجدل ومنهج الذوق. إذ إن الاستفادة من القدامى في هذين البابين واردة لا محالة. بل إن مؤلف الرسائل الأستاذ سعيد النورسي، يعطيها أكثر من حظ القدامى والمحدثين أيضًا حين يدعو أهل التصوف إلى الانضواء تحت ظلال رسائل النور، إيمانًا منه بكون الرسائل أقرب إلى الحقيقة القرآنية والربانية من غيرها. فقد جعلت محورًا لها التفكر في الآفاق وفي الأنفس وفق ما ورد في القرآن الكريم.

الأسماء الحسنى

وعن هذا التفكر يرى النورسي أن رسائل النور تبين أن الموجودات قاطبة، إنما هي مظاهر الأسماء الحسنى، بحيث لا تدع مجالاً للغفلة قط، فلا شيء يكون حائلا دون السكينة والاطمئنان. لذا تكسب قارئها مرتبة واسعة -من الاطمئنان - سعة الكون كله، وتفتح أمامه دائرة عبودية واسعة ودائمة سعة الكون أيضًا. كما أنه -أي النورسي- يؤيد التفصيل في التفكر في الأنفس، ويرى أن هذا الطريق هو أقصر من التفكر في الآفاق وقطعي أيضًا، حتى إنه عندما يعرّف النتيجة التي يتم التوصل إليها بالتفكر النفسي، يعرفها بـ"مرتبة حق اليقين". وقد قام المؤلف بإضافة قسم بعنوان "شهادة الماهية الإنسانية" إلى خلاصة الخلاصة، التي هي بمثابة خلاصة بالعربية للآية الكبرى التي تشكل مثالاً في التفكر الآفاقي، ويبين أسباب هذه الإضافة في أحد "مكاتيب أميرداغ" على الشكل التالي:

"نعم إن الكون العظيم، يكون أمامي بمثابة حلقة ذكر في أثناء قراءتي لـ"خلاصة"، ولكن لأن لسان كل نوع من الأنواع واسع جدًّا، يتحرك العقل عن طريق الفكر كثيرًا كي يذعن بالأسماء الإلهية وصفاتها بعلم اليقين، وبعد ذلك يتمكن أن يبصر ذلك بوضوح. وعندما ينظر إلى الحقيقة الإنسانية في ذلك المقياس الجامع، وفي تلك الخريطة المصغرة، وفي

ذلك النموذج الصادق، وفي ذلك الميزان الصغير، وفي ذلك الشعور بالأنانية، فإنه يصدق تلك الأسماء والصفات بإيمان واطمئنان ووجدان جازم شهودي وإذعاني وبسهولة ويسر".

وهكذا مهما حاولنا ضبط تعريفنا لرسائل النور، فإننا لن نصيب إذا لم نتتبع وحداتها أو فقراتها بالبحث في ضوء الأحداث والظروف التي كانت تمر بها تركيا عندئذ. فقراءة هذه الرسائل في ذاكرة الفكر الإسلامي في عموميته، أمر فيه مغالطة كبيرة. بل إن الاحتفاظ بالخصوصية الكاملة والتامة لفكر هذه المكتوبات، هو الشرط الأساس لوضع أقدام القارئ على السبيل الصحيح (المواضيع تكاد تكون واحدة، لكن أسلوب المعالجة والأولويات في ترتيب العناصر وغير ذلك ليس واحدًا). فجميع المفكرين في إصلاح أوضاع العالم الإسلامي تطرقوا لمواضيع الاستبداد، والتعليم والعدل، والتنمية... ولكن ما قاله محمد عبده يتميز عمّا قاله محمد إقبال وعما قاله غيرهما، إذ لكل واحد في إطار بيئته، اصطلاحاته الشارحة والباحثة عن الحلول.

شقّت رسائل النور طريقها إلى الحقيقة في موضع العبادة ضمن العلم، وفتحت سبيلاً إلى حقيقة الحقائق في موضع السلوك والأوراد ضمن براهين منطقية وحجج علمية، وكشفت طريقًا مباشرًا إلى الولاية الكبرى في موضع علم التصوف والطريقة ضمن علم الكلام والعقيدة وأصول الدين.

وعليه أقول، إنها محاولةٌ لتفسير القرآن، وتفكّرٌ في آيات الآفاق والأنفس، أي نعم، لكن مع إيقاع أو جرس الزمن الاجتماعي والسياسي والحضاري لتركيا الحديثة بهدوئها وضجيجها، بمدها وجزرها.

صيقل الإسلام

وخير ما يعكس هذه الصورة سِفر صيقل الإسلام في مواضع متنوعة، حيث يقول الأستاذ سعيد النورسي في إحدى الفقرات: "لقد ألقيت نظرة إلى رسالة "المناظرات"، وذلك بعد مرور خمس وثلاثين سنة على تأليفها، فرأيت فيها وفي مؤلفات "سعيد القديم" أخطاء وهفوات. إذ ألف تلك الآثار في حالة روحية ولّدها الانقلاب السياسي وأنشأتها مؤثرات خارجية وعوامل محيطة به".

فلقد أحس بإحساس مسبق أن "رسائل النور" ستنقذ إيمان كثير من المؤمنين وستشد أزرهم، إلا أنه نظر إلى هذا النور من خلال الأحداث السياسية التي واكبت الانقلاب، وحاول تطبيق ما رآه من نور على واقع الحال من دون تعبير ولا تأويل، إلا أنه لم يوفق في التعبير عن بشراه توفيقًا كاملاً، كأننا برسائل النور -على لسان مؤلفها- في التجارب تستعجل أمرًا لم يحن أوانه بعد. (تأييده للجيش وجمعية الاتحاد والترقي).

ولكن بحلول الحرب العالمية وخضها للمجتمع التركي، وخاصة منه تلك العناصر التي كان النورسي يعول عليها في تدشين فجر جديد، تبين له الأمر فعاد "سعيد الجديد" إلى الاستمرار في مهامه وخالف "سعيدًا القديم".

ولا أرى هذه المخالفة إلا في وجهة واحدة هي الوجهة السياسية، أما فيما عدا ذلك، فنهج رسائل النور بقي حاملاً للروح المبشرة والمؤمنة بغد أفضل، بثقة كبيرة وعزم أكيد.

"إنني أقسم بما آتاني الله من قوة، بل لو كان لي ما لا يعدّ ولا يحصى من الألسنة، لأقسمت بها جميعا بالذي خلق العالم بهذا النظام الأكمل، وخلق الكون في منتهى الحكمة والانتظام من الذرات إلى السيارات السابحات في أجواء الفضاء. ومن جناح البعوضة إلى قناديل النجوم المتلألئة في السماوات... لا يمكن أن يخرج البشر على سنة الله الجارية في الكون، ويخالف بقية إخوانه من طوائف المخلوقات بشروره الكلية ويقضي بغلبة الشر على الخير... فهذا لا يمكن قطعًا".

وتقرير مثل هذا، مسند بقسم غليظ لا يمكن أن يصدر إلا ممن يعرف موطئ أقدامه ونتيجة منطوقه.

المسألة الحضارية

والشيء نفسه نلحظه في كيفية تعليله للمسألة الحضارية حيث يطرح السؤل التالي:

"ما الشر الذي جعل العالم الإسلامي يقف على أعتاب القرون الوسطى، بينما طار الأجانب والأوربيون بخاصة نحو المستقبل؟!".

الأمر في تمثله، راجع إلى مجموعة من الأدواء التي يعاني منها المسلمون في عهده -وإلى يومنا هذا- من مثل:

١- اليأس: يأس الفرد بالتراكم (=يأسًا مركبًا) عبر سنين

متعددة، ترتب عنه وضع نفسي عويص.

٢- الكذب: وهو أنواع كثيرة ومراتب متفاوتة.

٣- العدوانيــة والتباغض: وهـي ظاهرة نفسـية تدل على فقدان التوازن على مستوى شبكة العلاقات الاجتماعية.

٤- الجهل: بما عند المسلمين من روابط نورانية، وخاصة تلك التي تربطهم بالآخرة أو بالحياة الأخرى.

٥- الاستبداد: وهو حالة نفسية قبل أن تكون سياسية.

٦- الذاتية: أو حب الذات والظهور.

فموقـع هـذه الرسـائل يظهر فـي كونهـا متفتقـة وصادرة عـن واقـع مصـدوم، حيث إن صدمتـه أتته من تكرار الفشـل في تسـمية الأشـياء بأسـاميها الحقيقية، ومن الفشل في إعادة الإنسـان الإسـلامي إلى موضعه الأصلي. فمثلـت من ثم ردّ فعـل بنّـاء حوّل الفـرد إلى أمة، حيث ظهـرت نتيجة ذلك في المجتمع التركي المعاصر.

ودلـت أيضًـا علـى ردّ فعل بنّـاء حول الفكـرة إلى تجربة ناجحـة من ناحيـة الكيف، وذلك من خلال السـلوك العملي لطلبة النور في واقع تركيا الاجتماعي.

وخلاصـة الخلاصة أن كاتب الرسـائل عاش بين الأفكار الخادعـة والأفـكار المخدوعة بحثًا عـن -وأملا في تحقيق- قاعـدة مجتمعيـة شـرعية ثابتـة، لا ينخرم فيها أي شـرط من الشروط التي تحقق الحياة الكريمة والأخرى السعيدة، وذلك بتوفيـر عنصـرَي الأمن والعـدل، لأجل رد الظلـم ودفعه عن الإنسان وخاصة المسلم. ونجد في ثنايا هذا الحديث، تذكيرًا بما ذهب إليه ابن خلدون في مقدمته قائلاً: "لا تحسبن الظلم إنما هو أخْذ المال أو الملك من يد مالكه من غير عوض ولا سـبب كمـا هو المقصـود، بل الظلم أعم مـن ذلك. وكل من أخذ ملك أحد أو غصبه في عمله أو طالبه بغير حق أو فرض عليه حقًّا لم يفرضه الشرع فقد ظلمه". ■

(*) أستاذ الفكر والحضارة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية-تطوان / المغرب.

المراجع

(١) الملاحق، لبديع الزمان سـعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة.

(٢) صيقـل الإسـلام، لبديع الزمان سـعيد النورسـي، ترجمة: إحسـان قاسـم الصالحي، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة.

(٣) مقـال "أصـول التفكـر في رسـائل النـور"، لـ"أميد شمشـك" فـي المؤتمر العالمي ٣ لبديع الزمان سعيد النورسي.

حراء
مجلة علمية فكرية ثقافية
www.hiramagazine.com

معرفة اللّه

إنْ كنتَ بمعرفة الله مفعمًا،
فما أعظم حظّك!
إذ ترى في كل شيء معنًى،
وفكرةً وجمالاً،
وحتى الطبيعة، تغدو أمامك
وكأنها لحن تتناغم فيه الأصوات،
وتلتئم الألوان،
وكأنها قد سَكبت كل جمالها،
في وردة حسناء واحدة..!

* * *

أ.د. عرفان يلماز*

الحوت الأزرق

عملاق البحار والمحيطات

مرحبًا أيها الإنسان.. أنا الحوت الأزرق (Balaenoptera Musculus)، أضخم مخلوق بين الحيوانات الموجودة في عالمنا اليوم. بداية أحب أن أحدّثك عن نفسي، وأَرُدَّ بالتالي على بعض الادعاءات في حقّي. ربما وُجد في الماضي بعض الديناصورات التي تَكبُرني حجمًا ولكنها اليوم غير موجودة. فالقوي الخالق المدبر سبحانه، خلق مخلوقات كثيرة، وأذِن لها أن تعيش على هذه الأرض السابحة في فلك الفضاء الواسع حينًا من الدهر، ثم انقرضت بعض هذه المخلوقات وغابت عن مسرح الحياة، وظلّت بعضها اليوم مهددة بالانقراض، ولعل نسلي في المستقبل ينقرض ويكون هناك خلقٌ آخر.. وكل ذلك بأمره وتقديره وتدبيره سبحانه، فهو يتصرف في ملكه كيف يشاء.. ولا شك أن خَلْق حيوان ضخم مثلي كخَلْق جرثومة صغيرة بالنسبة له سبحانه، يخلق كما يشاء وكيفما يشاء، و﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾(يس:، تعالى سبحانه عن العجز الذي هو شأننا نحن المخلوقين. إلا أن بعض الناس يسلكون في تفسير الخلق طرقًا ملتوية وينحرفون إلى الإلحاد، لأنهم لا يرون العلم والقدرة في خَلْق الله الذي أتقن كل شيء خَلَقه، وتأتي نظرية التطور (Evo-lution) على رأس هذه الطرق الملتوية التي تسوق إلى الإلحاد.

وإنه ليحزنني الإنسانُ الذي يلجأ إلى الطفرات الفجائية والاصطفاء الطبيعي الذي لا يَرحم والتكيفِ المجرد عن الوعي والإدراك، ويتوسل إلى تلك النظريات القائمة على الصدفة، للتهرب من إثبات علم الله المحيط وقدرته المطلقة،

اللذيـن يتجليـان فـي آلاف الخاصيات المعجـزة التي زودها لمخلوق مثلي، ليتمكن من العيش في البحار الواسعة... هذه الخاصيات التي يكتشـفها علماء المورفولوجيا والفيزيولوجيا والتشـريح، والتـي لا تـدل إلا على كمال الإتقـان. يا لك من إنسـان تائـه حائر، عجولٍ في إطلاق الأحـكام؛ إذ تدّعي بأني كنـتُ في الماضي الغابر حيوانًا بَرّيًّـا كالفيل، ثم تطوّرتُ عبر سلسـلة مـن الطفرات الوراثيـة التصادفية إلـى حوت بحري، وأنت تدرك الفروق الجوهرية بين الحياتين البرية والبحرية... فهـل كل ذلـك مـن أجـل إنـكار وجـود الله الخالـق المطلق والتهرّب من عبوديته؟!

يعتقـد من لا يعرفني جيدًا بأني نوع من الأسـماك بسـبب عيشـي في البحار، ولكن لا تربطني بالأسـماك علاقة سـوى اشتراكي معها في الوسط البحري الذي أعيش فيه. فالأسماك مخلوقـات تتألف قلوبها من حُجَيرتَين، تتنفس الأوكسـيجين المنْحـلّ فـي المـاء عـن طريق الغلاصـم، تغطي الحراشـف العظميـة جسـمها، وتتكاثر بالبيـوض التي تضعها فـي الماء، كمـا أنها من ذوات الدم البـارد. أما قلبي فيتألف مثل قلوبكم -أنتم البشـر- مـن حُجَيْـراتٍ أربعة ولا يمكنني اسـتخلاص الأوكسجين المنحلّ في الماء، فأنا مزود مثلكم برئتين أستطيع من خلالها تنفّس الهواء. ولعل الفرق الجوهري الذي يميزني عن الأسـماك ويضعني في نوع الثدييات، هو الإنجاب نتيجة الحمل وإرضاع صغاري من ثُديّيَ الممتلئة باللبن.

تفتـرق الحيتـان إلى ٩٢ نوعًا منتميًا إلى ٣٨ جنسًـا. فكما أن هنـاك أنواعًـا مختلفـة الأحجـام والأطـوال -كالدلافين- فكذلـك هنـاك أنواع مثلي، تتمتع بطـول ٣٤ مترًا ووزن ١٩٠ طنًّـا، مما يكسـبها لقب أضخم حيوان في العالم. وسـأحاول الآن أن أقـدّم لكم بإيجـاز، قدراتي الخاصة التي وهبنيها ربي وخالقي لأقدر على العيش في وسط المحيطات، وجعلني بها أتميـز عن باقي الحيوانات الحية الأخرى، وأترك تقدير ما إذا كنـتُ قد بلغتُ هذه الحال عبر سلسـلة من الطفرات الوراثية التصادفية أم بخلقٍ وتقديرٍ وتدبيرٍ إلهي معجز؟!

هيكل عظمي مدهش

كما تعلمون أنتم البشر، ينبغي أن لا تكون كثافة جسمي أعلى مـن كثافة الماء أو ينبغي أن يتم تعزيز قوة رفع الماء بفجوات هواء إضافية حتـى أتمكن من العَوْم في المحيطات والغوص فـي أعماقهـا. لذلـك، فالعظام التي تشـكل الهيـكل العظمي

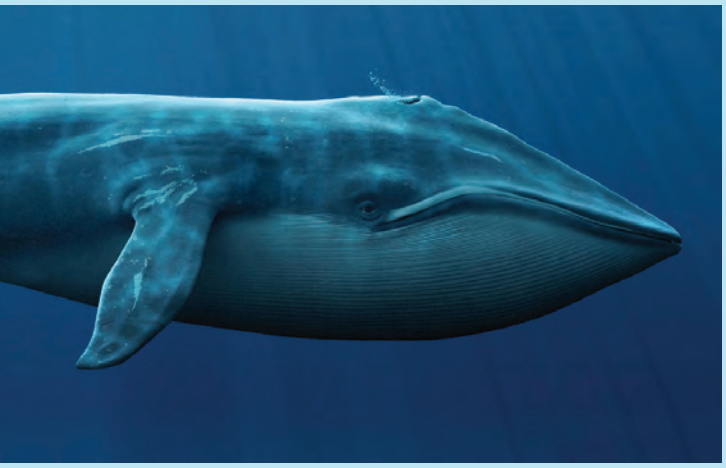

لـدي ما عدا عظام الرأس، تتركب من مواد إسـفنجيَّة تختلف عـن عظامكم وعظام سـائر الثدييات. يشـكّل النخاع الدهني نسـبة ٥٠٪ مـن عظامـي، كما أن هـذه العظـام الدهنية تؤدي إلـى تخفيـفٍ كبيرٍ في وزن هيكلي العظمي الذي يكوّن نسـبة ١٧٪ مـن جسـمي. إضافةً إلـى أن هيكلي العظمـي لم يُخلق لحمـل جسـمي الضخم وتأمين سـيري فقط، بـل يعمل أيضًا على تأمين المرونة العالية في دعم عضلات جسمي وتمكيني من السباحة. فهيكلكم العظمي -أنتم البشر- صلبٌ، وهذا ما يمكّنكـم من الوقوف على الأرض ومقاومةِ الجاذبية الأرضية وبالتالـي السـير عليهـا. ومـن هنـا يمكنكـم أن تتخيلوا مدى الصعوبـات التي واجهها أصحاب نظرية التطور حتى يجدوا طريقـة يقنعـون بها الناس حول كيفيـة انتقالي من حيوان برّي إلى حيوان مائي! إذ زعموا أني سئمتُ من الحياة على اليابسة فغيّرت جسمي لكي أتمكّن من العيش في الماء والمحيطات!

أما معدّل سـرعة النمو لعظام رأسـي، فتتغير تغيرًا مفاجئًا عنـد المرحلة الأخيـرة من نمو الجنيـن، إذ تنزلق عظمة أنفي نحو الأعلى وتمتد عظام فكّي طولاً، وبذلك تنتقل فتحة أنفي إلى أعلى نقطة في رأسي لأتمكّن من تنفس الهواء.

السمع من أهم الحواس لديّ، وإنْ كانت حاسة الشم لدينا نحن الحيتان ضعيفة، فإن حاسة البصر قوية. فإنْ كنا لا نملك حاسـة التـذوق، فإن حاسـة اللمـس لدينا جيدة وهـي موزّعة على جسمي كله، كما أن الشعيرات القليلة على أطراف فمي عالية الحساسـية أيضًا. أنتم بني البشـر تتمتعـون برؤية ثلاثية الأبعاد، فترون بها الأشـياء مجسـمة، ولكن الرؤية لدي ثنائية الأبعـاد، حيث أرى الأشـياء مسـطحة، لأن كِلا عينـيَّ يرتبط بالدماغ من خلال عصب بصري مستقل... لا أقول لكم ذلك شـكاية أو اعتراضًـا، بل أقوله بيانًا لروعـة الخلق والكمال...

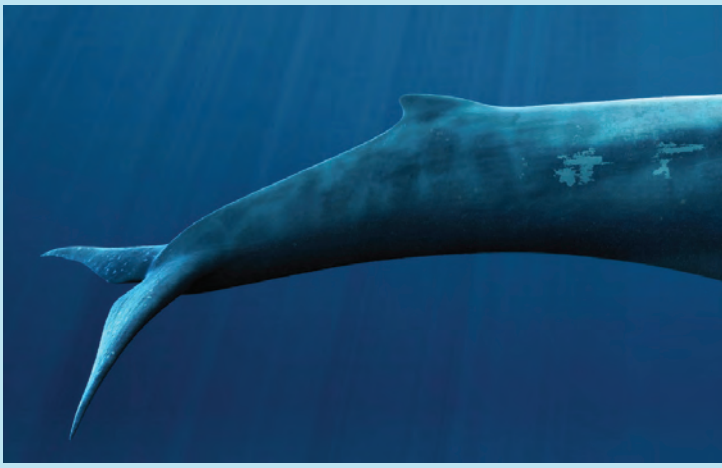

فلستُ أشكو أبدًا من رؤية الأشياء مسطحة، ولستُ معترضًا قطّ لعدم وجود حاسة التذوق لديّ. لأني أُومِن بأن الله تعالى خلقني على هذا الشكل، لأنه يناسب خلقتي ويوفّر لي الحياة المريحة والحركة السهلة. وليس من عادتي أن أبحث عن عيبٍ أو خللٍ في ما خلقه ربي.

سمع قوي وصوت شديد

هناك فرق كبير بين كثافة الهواء وكثافة الحيوانات البرية في العادة. ولذا فإن وصول الموجات الصوتية إلى الأذنين في زمنين مختلفين متعاقبين بسبب المسافة الفاصلة بينهما، يوفر للأذنين القدرة على تحديد مصدر الأصوات بسهولة. في حين تقل الفروق بين كثافة الماء وكثافة جسم حيوان بحري مثلي، كما أن الموجات الصوتية التي تنقلها المياه، تنتشر إلى كل الجهات في سرعة واحدة، وتصل إلى الأذنين في تزامنٍ لا يسمح بتحديد جهة المنبع الصوتي. ولاجتياز هذه المشكلة، وضع ربي فجوة في الجزء الخلفي من رأسي تفصل منطقة السمع لديّ، ووضع وراء أُذني الداخلية كيسًا هوائيًا رجراجًا. وبالتالي جعل لنا نحن الحيتان جيوبًا تفصل بين الأذنين الداخليتين تدعى "Periblar Sinus"، وجعل كذلك الأكياس الهوائية خلف الأذنين، تهتز بشكل مستقل عن الأخرى، وهذا ما يمكّننا من تحديد جهة الصوت في يسر وسهولة. أثناء الغطس في أعماق البحار يزداد ضغط الكتل المائية الهائلة بسرعةٍ كبيرةٍ على أذني، يقوم الدم الذي يندفع إلى فجوات الهواء أثناء الغطس بدور التوازن، وبذلك يكون قد حماها ربي الذي أحسن خلقي من الانفجار.

على الرغم من أن أُذُنَيَّ لا تملكان أذنًا خارجية مثلكم، فإنهما حساستان جدًّا للأصوات، حيث تستطيع التقاط الاهتزازات من ١٢,٥ هرتز إلى ٣٢٠٠٠ هرتز، بينما يبلغ الحد الأعلى من هذه الاهتزازات عند إناثنا ٢٠٠ ألف هرتز.

إن قوة السمع عندي تعني في المقابل وجود آلية قوية لإصدار الأصوات. إذ نستعمل الذبذبات المختلفة لأغراض مختلفة. فالأصوات المنخفضة (١٢,٥–٢٠٠ هرتز) تشكل لغتنا الخاصة التي نستعملها فيما بيننا، كما نستعمل الذبذبات العالية (٢١٠٠٠–٣٢٠٠٠) كالرادارات، للدلالة على التمَوْضع والمكان، إذ من خلالها نحدد أماكن أسراب القريدس والأسماك التي نقتات عليها. صوتي هو الأشد والأقوى بين أصوات الحيوانات، وأَذكُر أني أصدرت -في إحدى المرات- صوتًا أقوى من صوت طائرة أقلعت من مطار "تشيلي". وبفضل هذه القدرة في السمع والتصويت، نتمكن من مراقبة بعضنا على مسافات بعيدة جدًّا. فالصوت الخافت الذي أصدره بذبذبة تبلغ ٢٠ هرتزًا، يمكن التقاطه من قبل حوت آخر على مسافة ٧٥ كم بكل وضوح، بل ربما يمكننا التواصل فيما بيننا على مسافة ٣٠٠ كم، بل ويمكنني أن أرسل الرسائل وأتواصل مع أصدقائي على مسافة ١٠ آلاف كيلومتر إذا توافق الصوت الذي أصدرتُه مع موج البحر ولم تشوش عليه أصوات محركات البواخر.

لكي لا أتجمد من شدة البرد

تعلمون أن البحار باردةٌ، وإذا علمتم أن بعض أنواعنا تلتمس حياتها في المحيطات القريبة من القطب، فإنكم ستتخيلون أن حياتنا مليئة بالصعوبات والمعاناة. ربما كان الأمر كذلك بالنسبة لكم، لكن ربي -بعلمه المحيط- جعل تحت جلدي طبقة دهنية بسماكة تتراوح من ٢٥ سم إلى ٥٠ سم. هذه الطبقة الدهنية تعمل كعازل حراري لتحفظ حرارة الجسم وتخفف من الفاقد الحراري إلى أدنى مستوى. كما يغطى جلدي بطبقة دهنية زلقة وليس فيه مسامات التعرق. تتحكم شبكة العروق الدموية الكثيفة في زعانفي، في حرارة جسمي؛ ففي البحار الدافئة تتمدد عضلات هذه العروق وتتوسع ليزداد الفاقد الحراري بما يناسب حرارة الوسط الذي أسبح فيه، بينما تتقلص في البحار الباردة وتضيق عروقُ الزعانف لتنخفض كمية الدماء الواردة إليها، وبالتالي لينخفض الفاقد الحراري. توجد الشرايين التي تحمل الدماء من القلب إلى الزعانف، متلاصقة مع الأوردة التي تعود بالدماء إلى القلب، فتعمل حرارة الدماء في الشرايين على تدفئة الدماء في الأوردة، وتأمين عودتها إلى الجسم، وتخفيض الفاقد الحراري.

الغواص المحمي من صدمات الشلل

يعـرف الغواصون جيدًا أن أخطر تهديد يمكن أن يواجهوه في الغطـس، هو تحـول الأزوت -المنحل في الـدم عند الصعود السـريع المفاجئ من الأعماق- إلـى فقاعات غازية تؤدي إلى احتشـاءات فـي الأوعيـة الدموية للأعضـاء الحيويـة كالقلب والدمـاغ. يمكن أن نرى ذلك ببسـاطة، عندمـا نفتح (الكازوز) بشـكل آني سـريع، كيف تتحول كربونات الأسيد المنحلة إلى فقاعات (كربونديوكسيتين). وأنا أمضي حياتي بالغطس الفوري السـريع إلـى مئـات الأمتار، والعودة السـريعة كذلـك دون أن أتعرض لصدمات الشـلل، لأني مجهَّز بشكل خاص. فالرئتان لديّ تعملان بشكل أسرع في التبادل الغازي، وأقوم باستعمال ٨٠٪ مـن طاقتهما الإنتاجية، في حين تسـتخدم الثديات البرية ٣٠٪ مـن طاقتهما في التبـادل الغازي. ولذلك أسـتطيع البقاء تحت سـطح الماء لمدة سـاعة كاملة مقابل دقيقتين من تنفس الهـواء. ودمائـي تحمـل ضِعفَي مـا عندكم -أنتم البشـر- من الكريّات الحمر، ولذلك أحمل كميات كافية من الأوكسجين.

وبسـبب زيـادة "الميوجلوبين" (Myoglobin) في جسـمي، يكـون لحمـي أسـود اللـون، بينمـا لحـوم الحيوانـات البرية تكـون حمـراء اللون. كمـا أن لديّ موهبـة لتخفيض ضربات قلبي وتضييق شـرايـيني وتقليل مصروفي من الأوكسـجين في الأعمـاق. ولكـن كل ذلـك يحصل لـدي آليًّا بـدون إرادة أو وعي مني، بعناية القدرة الإلهية وفيض كرمه.

وإنْ كنـتُ لا أعلم شـيئًا، كيف أفعل ذلـك بغاز الأزوت، إلا أن الدراسـات التـي أقامهـا الفيزيولوجيـون تقـول بوجود هـواء قليل في ثغرات جهازي التنفسـي، علاوة على أن رئتيَّ تحمـلان فـي داخلهمـا ومحيطهمـا كمياتٍ وافرة مـن المواد المخاطيـة الدهنيـة تعمل على امتصـاص الأزوت من الهواء، فـلا يبقى أي غاز آزوتي حر، ولا أتعرض للاحتشـاءات أثناء الغطـس والعَوم، حيث أطرح هـذه المواد المخاطية المحملة بـالآزوت الموجودة في المجاري التنفسـية عبـر فتحتي أنفي مع التنفس المحمل ببخار الماء. ويمكنكم أن تروا هذا الزفير الـذي يبلغ تسـعة أمتار عندمـا تخرجون للسـياحة في البحار والمحيطات، ويمكنكم أن تروا ذلك بوضوح أكبر، مع أعمدة البخار المتكاثف الذي يخرج مع الزفير في الأجواء الباردة.

أضطر إلى شـرب المياه المالحة، لكـن الكلى لدي كبيرة ومصممة لتطرح هذه الأملاح الفائضة عن حاجتي، عن طريق بولـي الكثيـف. والحقيقة أنـي لا أحتاج إلـى الكثير من الماء لأنني لا أتعرق.

أَلِـدُ مـرةً كل عامين أو ثلاثة أعوام، أو ألـد فرخًا يبلغ ٢,٥ طنًّـا بعـد حمل يـدوم ١٢ شـهرًا. وأتلقى مسـاعدة الإناث في هذه المرحلة، فالصغير الذي يبلغ ضعف وزنه خلال أسـبوع، يرضـع منـي ٦٠٠ لتر مـن الحليـب يوميًّا. معـدل الدهون في حليبـي ٤٠٪ (مقابـل ٢٪ معدل الدهون فـي حليبكم)، ولذلك أقلل من شرب المياه أثناء الإرضاع حتى يكون في كثافة أعلى. وحتـى لا تتسـرب الميـاه المالحة مـع الحليب أثنـاء الرضاع، أودع الله الرحيـم بخلقـه في الصغير قابليـة الرضاع وعضلات خاصة تمكنه من الرضاع، وجعل ثديي بشكل يطبق على الفم بشـكل جيد، وجعل فيهما قـدرة على ضخ الحليب من خلال عضلات تتقلص وتتمدد، وبذلك يبقى صغيري ملتصقًا بثديي طيلـة ثمانية أشـهر أضخ في فمه الحليب. فهـل يعقَل أن ننظر إلـى هـذا النظام المذهل بأنه صدفة كمـا ادعى أصحاب نظرية التطـور؟! أحتـاج خـلال الإرضـاع أن أتناول أربعـة أطنان من أسـماك القريدس والسردين والأسماك الصغيرة الأخرى. وإذا اسـتطعتُ التخلص من الإنسـان ومن اصطياده لي، فيمكن أن أواصل العيش (٨٠-١٠٠) سـنة. على الرغم من أن عددنا كان يبلغ (٣٠٠,٠٠٠) حوت في القرن التاسع عشر، فإن هذا العدد اليـوم يقدّر بـ(٦٠٠٠-١٠,٠٠٠) حوت، وذلك بسـبب الصيد الجائر. سـرعتي في السـباحة الطبيعية تبلـغ (١١-١٣ كم) في السـاعة، كما أسـتطيع أن أرفع هذه السـرعة إلى (٣٠-٣٥ كم) فـي السـاعة عند الطـوارئ ولفترات قصيرة. وبالتالي أسـتطيع وبكل سـهولة البقاء في عمق يبلغ (١٥٠) متر ولمدة تسـتغرق ٢٠ دقيقـة، وهذه الأرقام قياسـات تخصّني أنا فقط، ويمكنكم أن تقيسوا أرقامًا خاصة أخرى، وتكتشفوا خاصيات أخرى عند بقية أنواع الحيتان. ومهما يكن من اختلاف في الخاصيات من نـوع إلى آخـر، فإنها كلها مـن مظاهر تجليات القـدرة والعلم المحيط والرحمة المطلقة لخالقنا وبارئنا جل وعلا.

تعجز كلماتي عن توجيه أي خطاب لأولئك الذين يزعمون بأني في خلقتي هذه التي تفوق الخيال، تعرضتُ لطفرات وراثية أثناء انتقالي من البر إلى البحار والمحيطات... قولوا ما شئتم، فأنا سـأمضي الآن إلى محيطي حامدًا شاكرًا مسبحًا لخالقي، لأنـي أشـعر بالجوع، ولابـد لي من الغطس مجـددًا لأجد ما أقتات عليه من رزق الله تعالى... أستودعكم الله أيها البشر. ■

(*) جامعة ٩ أيلول / تركيا. الترجمة عن التركية: مصطفى حمزة.

د. مريم آيت أحمد*

آليات بناء ثقافة الوسطية

كيف يمكننا بناء ثقافة الوسطية في ظل غياب نقطة لقاء وتقابل ووفاق بين ثقافة الأبيض والأسود، الاستتباع المطلق والرفض المطلق، الحوار والإقصاء "الشحّ" و"الإسراف" البناء والهدم، الهوية واللاهوية، العنف والتسامح، الظلم والعدل... ثقافة الغالب أو المغلوب، ثقافة الوسط المعاصرة والعولمة ، ثقافة المادة و الروح، وغيرها من الثقافات التي كان لها حضورها وقوة دفعها وتأثيرها على المجتمع البشري سلبًا وإيجابًا، مما يميزها بصفة الحياة والديمومة بين ثقافات كثيرة ماتت واندثرت عبر الزمن. وبعيدًا عن برمجة وعينا الذاتي وتموقعنا داخل دائرة

الإطار الدفاعي الضيق، الذي يحكمه رد الفعل الآني اللامفكَّر فيه، والذي بسببه تم استهداف موقع الوسطية في عالمنا العربي والإسلامي، علينا أن نعيد بناء موقع الوسطية بناء تاريخيًّا ملموسًا متينًا. واليوم ليس صدفة ولا اعتباطًا أن يغلب الفكر الدفاعي بآلياته الانكماشية والتبريرية الأيديولوجية داخل المجتمعات الإسلامية، وأن يضمر إنتاج المعرفة الحقيقية التي يمكن أن تفتح أبوابًا جديدة للعمل، وأن تحدث منعطفًا حقيقيًّا في واقع المسلمين وفي حاضر البشرية.

نعم، إن تدمير الموقع الروحي الذي يمكن أن يشرف منه المسلم على العالم وعلى الناس، ويتمكن من خلاله كسب مفاتيح تسريع التغيير وبناء الحضارة والوصول إلى أفئدة الأمم الأخرى، يبدأ بتغييب سؤال الهوية: من نحن؟ ويمكننا أن نجيب على هذا السؤال بكيفيتين: من جهة المعنى الإرادي للهوية، ومن هذه الزاوية لسنا ما نحن عليه، ولكننا ما نريد أن نكون عليه وأن نصير إليه، فالهوية هنا إمكانية وأفق للتطلع أمامنا. ويمكننا أن ننظر للهوية نظرة سوسيولوجية، أي من جهة ما نحته الزمن والآخرون فينا، فنحن لسنا مجرد فاعل تاريخي حر، ولكننا أيضًا مفعول به. ومن هذه الزاوية يمكن أن نطرح السؤال السوسيولوجي: ما هي القوى التي تخترقنا وتحددنا على ما نحن عليه؟ وحين نطرح هذا السؤال بجدية، سنكتشف أننا لسنا سادة أنفسنا في كثير مما نفعل، وأن ما تعرَّضت وتتعرض له الأمة وطلائعها من هجمات ضارية، قد أحدث تشويهات هامة في وعينا الذاتي، وحسنا التاريخي. ومن المعروف سوسيولوجيًّا أن العنف الشديد الطويل، له آثار تشويهية في الغالب، ولا يمكن أن نفلت من هذه الآثار إلا بالاعتصام المعرفي والعملي بالمقام الروحي للوسطية. فالوسطية هنا قيمة تحررية وملاذ من التشويهات العنيفة للهوية وللوعي الذاتي.

بهذا المعنى فإن الوسطية، هي الموقع الذي يمكن لمسلم هذا الزمان أن ينطلق منه وينشئ فعلاً تاريخيًّا متحررًا من التشويهات العنفية. الوسطية كموقع روحي، كقيمة تأسيسية لكينونة الإنسان، كمبدإ تأسيسي للأمة الإسلامية، هي الأفق الذي ينبغي أن تتحرك نحوه الأمة، لأن الأمة الآن لا ترى كثيرًا مما ينبغي أن تراه.

ولأن ثقافة وسطية الأمة -أيّة أمة- هي المظهر الأبرز الدال على قوة مبادئ ومعتقدات وحضارات الشعوب في بناء الحضارات، وهي عنصر هام في عملية التنمية الشاملة والبناء الحضاري، فبمقدار شمولية ثقافة الوسطية وتوازنها واستقرارها وصحة متبنياتها، يرتفع عمود الحضارة وتترسخ أركانها في المجتمع، وليس لقوة -مهما بلغت- أن تهزم أو تهدم حضارة قائمة على ثقافة ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾(البقرة:١٤٣). لأن الوسطية هي جهاز فعّال ينتقل بالإنسان إلى وضع أفضل، ووضع يواكب المشاكل والظروف الخاصة التي تواجه الإنسان في هذا المجتمع أو ذاك في بيئته وفي سياق تلبيته لحاجاته الأساسية. وعودتنا إلى بناء ثقافة الوسطية، والانطلاق منها إلى المشاركة والمنافسة الحضارية الفاعلة، يقتضي منا إعادة النظر في صياغة جديدة للأمور الآتية:

١- بناء ثقافة وسطية الفكر الإسلامي

لابد لنا أن نؤكد على أصول العقيدة الثابتة القطعية في كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ وفصلها من فروعها، والتأكيد على الأصول وترك الفروع التي اختلف حولها العلماء، حتى لا نتمزق من جديد.

فثقافة الوسطية ينبغي أن تؤصِّل:

• لمنهج في التعامل مع تيارات الفكر الإسلامي القديم، واعتبارها تيارات اجتهادية جابهت الفلسفات والتيارات الفكرية في زمانها فأصابت وأخطأت، وليس من المصلحة إحياؤها اليوم وإدارة صراعات جديدة عليها.

• لتقبُّل مواجهة الأفكار الجديدة بأسلوب جديد ومادة معرفية جديدة، منطلقين من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

• تبني المنهج الشمولي في فهم الإسلام الذي يجمع بين العقيدة والشريعة والسلوك والحركة والبناء الحضاري من خلال منهج عقلي أصولي سليم.

• الإيمان بأن الفقه الإسلامي فقه متجدد، لا يقف عند زمن معين ولا مذهب معين، ومواجهة مشكلات العصر من خلال مقاصد الشريعة وقاعدة الأيسر وليس الأحوط.

• دراسة الأنظمة العامة والمبادئ الكلية في الشريعة الإسلامية، بمواجهة ما عند الغرب من مبادئ ونظريات قانونية كلية.

• دراسة السنن الكونية دراسة علمية موضوعية، والاستفادة منها في الدخول إلى العصر الحضاري الإسلامي الجديد.

• استقراء وتفكيك وتحليل مختبري للعوامل المؤدية لمظاهر الخرافة والبدع والتواكلية والانهزامية واللاإرادية الإنجاز والعنف والانحراف، لا لاقتصار على تدويل ثقافة الردع والاستنكار والمحاربة.

• تأسيس مراكز دراسات وأبحاث إستراتيجية، وتأهيل أطر وكوادر علميًّا ومعرفيًّا وإعلاميًّا وسياسيًّا وسوسيولوجيًّا وتكنولوجيًّا، للرد على الغزو الثقافي العولمي من خلال المنهج السابق في الفكر الإسلامي بجميع الوسائل التي يعتمد عليها، سواء من خلال الأنماط الفكرية، أم الفنية، أم الأدبية التي يعرضونها من خلال أفكارهم المناقضة للإسلام.

ثقافة وسطية الأمة، هي عنصر هام في عملية التنمية الشاملة والبناء الحضاري، فبمقدار شمولية ثقافة الوسطية وتوازنها واستقرارها وصحة متبنياتها، يرتفع عمود الحضارة وتترسخ أركانها في المجتمع، وليس لقوة مهما بلغت، أن تهزم أو تهدم حضارة قائمة على ثقافة ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾.

٢- بناء وسطية الفكر السياسي

لابد من تأصيل منهج وسطي كفيل بنقد تاريخي شامل لنظام الحكم في المجتمعات الإسلامية من بعد معركة صفين وإلى اليوم، وإثبات أن بعض التطبيقات الاستبدادية التي سادت في بعض تاريخنا مخالف لنظام الحكم الشورِي في الإسلام، وأنه جلب على الأمة الإسلامية -عبر العصور- مآسي جمّة وخرابًا شاملاً، وأنه من أعظم أسباب سقوط المجتمع الإسلامي وأزماته قديمًا وحديثًا.

إن نظام الشورى في الإسلام كما طبّقه الرسول ﷺ وخلفاؤه الراشدون، وكما يمكن أن يلجأ اليوم إلى الآليات والأساليب المعاصرة المنسجمة مع روح الإسلام لتحقيق مقاصد الشورى، هو الذي يحقق كرامة الإنسان المسلم، ويعيد إليه حقه في المعارضة والتعبير عن آرائه بحرية أخلاقية منضبطة. وما لم تساهم الحكومات العربية اليوم، مع النخب السياسية والفكرية، في إعادة بناء وسطية الفكر السياسي والإيمان بالديموقراطية والتعددية والحرية الفكرية والسياسية، فإن النتيجة ستؤدي إلى المزيد من العنف الداخلي والخارجي.

٣- بناء ثقافة الوسطية في الفكر الاقتصادي

استنباط المنهج الوسطي في الفكر الاقتصادي والنظام الاقتصادي الإسلامي المعاصر من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ واجتهادات الفقهاء المجتهدين عبر العصور، مع التعمق في استنباط فقه الواقع مع ما استجد من قضايا الاقتصاديات المعاصرة، والتي تتلاءم مع روح الإسلام. ولعل المنهج الوسطي في بناء الاقتصاد، كفيل بالقضاء على التفاوت في توزيع الثروات، ويعيد التوازن إلى المجتمع الإسلامي، ويحدد وظيفة الدولة الاقتصادية، وذلك من خلال:

• وضع مناهج دراسية في وسطية الاقتصاد الإسلامي، وبيان مرونته في منع الاستغلال وعدم التركيز على معالجة واحدة في كل حالة زمانية أو مكانية، وأنه يقرر الأصول ويفتح حرية الحركة أمام الاقتصاديين لحل المشكلات الاقتصادية حسب الظروف المختلفة.

• قراءة قيمية للمنهج الوسطي الاقتصادي في مشروعية التملك، مع إحاطته بسياج من القيود حتى لا يؤدي إلى التعسف في استعمال حق الملكية، ويشرع الإسلام مع الملكية الفردية الملكية العامة وملكية الدولة.

• توسيع مجال الدراسات في وسطية الاقتصاد الاسلامي، في احترام قيمة العمل المستخلصة من مفهوم الاستخلاف، وتكافؤ الفرص وتغليب التوازن في التكافل الاجتماعي، لتحقيق التنمية الشاملة من منطلق القاعدة الشرعية "حيثما كانت مصالح العباد فثمة شرع الله".

هذه هي بعض الملامح العامة لبناء ثقافة وسطية للاقتصاد الإسلامي، المتميز عن باقي الأنظمة الاقتصادية بإعطاء الأولوية لمحورية الإنسان في الكون وليس المادة والربح والقوة والتمكين، لابد أن يؤدي عند تطبيقه، إلى طريق جديد للتنمية في المجتمع الإنساني، طريقٍ وسطٍ ليس آليًّا يبغي الربح وحده أو الكفاية الاقتصادية وحدها، إنما هو طريق إنتاج اقتصادي أخلاقي إنساني، يفي بحاجة الإنسان وضروراته وشيء من كمالياته، إن أمكن ذلك.

فإذا أعطينا الأولوية لإعادة قراءةِ وصياغة منهج وسطي

في الاقتصاد الإسلامي، سنتمكن من الاستفادة من إمكانيات المسلمين الاقتصادية الضخمة المتنوعة في جانب التشييد والاستثمار والمعادن والزراعة، وسنواجه العولمة المركزية بعالمية عربية وإسلامية وشرقية. إن المنهج الوسطي سيؤهل كوادرنا بخبرات التعامل مع الاقتصاد العالمي من خلال تبادل المنافع، والتخطيط للتنمية تخطيطًا ذاتيًّا جيدًا، مع الاستفادة من خبرات وتنظيمات الحضارة الغربية واقتحام المنافسة الحضارية بإقامة سوق إسلامية مشتركة، تنقل من خلالها الأرصدة العربية والإسلامية الضخمة إلى العالم، بعد إعادة الثقة في وحدة الأمة.

٤- بناء ثقافة وسطية الفكر الاجتماعي الإسلامي

لابد من تأصيل منهج الوسطية في النظام الاجتماعي الإسلامي، وذلك من خلال الأمور الآتية:

• نشر ثقافة الوسطية في تدويل ونشر قيمة مبدإ تكافؤ الفرص في المجتمع الإسلامي الموزع بين جهود الرجال والنساء يكمل بعضهم بعضًا، بدون مفاضلة في أصول الخلقة، ولا مفاضلة لجنس على آخر في أصل الخلقة، بل كل جانب يفضل الآخر فيما كلف به من واجبات شرعية.

• إقرار المنهج الوسطي الإسلامي في تشريعاته الخاصة بإنسانية المرأة، واستقلال شخصيتها، وعدها أهلاً للتدين والعبادة، وإقرار حق المبايعة لها كالرجل، ودعوتها إلى المشاركة في النشاط الاجتماعي المنضبط بضوابط الأخلاق، وقد سمح لها بالأعمال التي تتفق مع طبيعتها، وشرع لها نصيبها في الميراث وإشراكها في إدارة شؤون الأسرة وتربية الأولاد، وأوجب معاملتها بالمعروف واحترام آدميتها، كما أنه ساوى بينها وبين الرجال في الولاية على المال والعقود، وأقر لها شخصيتها القضائية المستقلة.

ومن هذا المنطلق، لابد من إعادة النظر في مشكلاتها الاجتماعية في ضوء أحكام الشريعة الإسلامية العامة، ومقاصدها الحكيمة وغاياتها في الحياة، لتحديد مسؤوليتها الأسرية والاجتماعية.

• وسطية الإسلام في تحقيق العدل والسلم وحفظ حقوق أهل الأديان جميعًا، لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين، إلا فيما يخص القضايا التشريعية الخاصة بكل طرف في إطار المجتمع الإنساني.

• التركيز على وسطية الإسلام في بناء نواة الأسرة في المجتمع الإسلامي على القواعد الإسلامية؛ في الطهارة والعفاف والبر والإيثار والتكافل، والابتعاد عن الأمراض الاجتماعية والفوضى الجنسية والاجتماعية، وخرق نظم ومبادئ الأخلاق التي يقرها الإسلام.

٥- بناء ثقافة الوسطية في الفكر التربوي والاعلامي

أمام هجمة الفضائيات العولمية، وتخطيطها العلمي والفني الذكي في عرض أفكارها بطرق متنوعة مؤثرة عبر الأنماط الفنية من المسلسلات والأفلام والتعليقات والتقارير التي تدخل يوميًّا مئات الملايين، من أجهزة التلفزيون والإذاعة والإنترنت على وجه الأرض، لا يمكن الحفاظ على الذات والأصالة والخصوصية الدينية والفكرية، إلا بتربية أبناء الأمة تربية مخططة، تُشعِرهم بأنهم أبناء أمة التوحيد والإيمان، وتنشئتهم نشأة إسلامية، وتحصّنهم فكريًّا وأخلاقيًّا وسياسيًّا واجتماعيًّا واقتصاديًّا، بحيث يعلمون بيقين كامل أنهم متميزون عما يشاهدون. ويكون ذلك:

• بالاهتمام بتربية الأسرة المسلمة وتثقيف أفرادها، وتوجيههم من خلال أجهزة الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة، ومن خلال المناهج الرصينة في التربية الدينية، وكتب اللغة العربية، وكتب التاريخ والجغرافية والثقافة العربية والوطنية العامة، وإعادة الاعتبار للعلاقة بين الدين والعلم من خلال الكتب والمجلات والجرائد والدوريات الخاصة والعامة، والمخيمات والدورات التدريبية الشبابية في الأقطار العربية أو الإسلامية.

• وبإعادة بناء ثقافة وسطية إعلامية هادفة، تستثمر نصوص العُروض المسرحية والأفلام الدرامية ودُور العَرض السينمائية في إيصال الرسالة الأخلاقية والقيمية، التي تمكن من تأهيل وتكوين أجيال تشعر بانتمائها الإسلامي وانتسابها الحضاري للأمة العربية والإسلامية.

• ومن خلال وحدة المعرفة التي قامت عليها التربية الإسلامية التي تبغي صياغة الفرد صياغة إسلامية حضارية، وإعداد شخصيته إعدادًا كاملاً من حيث العقيدة والذوق والفكر والمادة، حتى تتكون الأمة الواحدة المتحضرة التي لا تبقى فيها ثغرة تتسلل منها الإغراءات العولمية اللادينية الجنسية الإباحية.

إننا نحتاج في بلاد الإسلام كلها، إلى أن نقوم بحملة إسلامية شاملة عبر مخطط حضاري معاصر، تشترك فيها الدول والمؤسسات الرسمية والشعبية والجمعيات والأحزاب جميعًا، لأن مواجهة العولمة من الخطورة بحيث يجب أن نتعامل معها من مواقع قوية تشهد على وحدة الأمة وغاياتها النبيلة في هذه الحالة لخيرها ولخير البشرية جميعًا.

إن إستراتيجية إعادة بناء ثقافة الوسطية مرتبطة كل الارتباط بمفهومي الهوية والحوار. والسؤال: كيف يمكن أن نبني ثقافة وسطية إن لم تكن بيننا نقاط مشتركة نتحاور فيها؟ لأنه وفي ظل غياب منهج الوسط في تقييم القواسم المشتركة، يكون الحوار أكذوبة وخداعًا مجتمعيًا، وتأتي الاتفاقات بين التشكيلات والانتماءات المختلفة هشَّة. فمن الضروري تأصيل منهج وسطية القواسم المشتركة. ولا يعني هذا تبشيرًا بنوع من العالمية اليوتوبية؛ فالمسألة ليست على هذه الصورة. القضية الجوهرية هي: كيف يمكننا أن نتبنى نهج الاعتدال والوسط للحوار والتفاهم مع الأطراف المخالفة في الفكر والرأي والدين والسياسة، من غير نقاط متشابهة ومشتركة تؤهلنا للخروج بنتائج عملية للمشاركة الحقيقية على تنوع الوسائل والآليات في صنع الحضارة العالمية.

هنا يبرز دور علم التربية الخاص بالوسطية قبل الحوار، لأن الحوار لن يتحقق من دون إيمان بمنهج وسطي يحضر العقل لقبول الحوار.

ولبناء ثقافة الوسطية، ينبغي تحديد ماهية الهوية، هل هي مبنية على أحادية؟ إذا كان المرء وحيدًا في الكون، هل يعقل أن تكون له هوية؟ حتمًا كلاّ، يجب أن يكون ثمة تفاعل مع الآخر لخلق هوية. ولكن هل التفاعل أو الحوار مع الآخر، يكفي لتشكيل هوية؟ الأكيد أنه لا يكفي. لماذا؟ لأنه منذ البدء كان الآخر موجودًا دومًا، والآخر هو "الغريب" بطريقة أو بأخرى. لذا كانت الحروب والتدمير على امتداد التاريخ وفي كل زمن. ما السبب؟ لعل أحد الأجوبة المفاتيح، أنه ينبغي

إن الوسطية، هي الموقع الذي يمكن لمسلم هذا الزمان أن ينطلق منه وينشئ فعلاً تاريخيًّا متحررًا من التشويهات العنفية. الوسطية كموقع روحي، كقيمة تأسيسية لكينونة الإنسان، كمبدإ تأسيسي للأمة الإسلامية، هي الأفق الذي ينبغي أن تتحرك نحوه الأمة.

وجود "ثالث مشمول"، هو منهج وسطي بين الإنساني والمقدس الذي يستحيل اختزاله في كل إنسان.

المطلوب إذن، تبني مشروع تربوي خاص بالتربية والتعليم يوفِّق -منذ البدء- بين المناهج العلمية والمناهج الأنَسِية والفن والشعر... أي لخلق أشخاص وسطيين معتدلين مرنين في عالم عدواني، أي عالم يقود سريعًا إلى البطالة، إلى الاستبعاد، إلى الاستهلاك، إلى الاتكالية، الانهزامية الانحراف، العنف، التهميش، الإقصاء... عالم يقول بالتكنولوجيا الحديثة لجيلنا: "أنت غير جدير بالتقدير" يسمعها الجيل ويدرك معناها جيدًا. وهنا المشكلة في لبِّها، بناء ثقافة الوسط ينبغي أن تبدأ بالبث أولاً عن إجابة شافية لهذا السؤال المحرج والمحيّر، لماذا يُهمَّش الإنسان في جيل التمكين المعرفي والعلمي والتكنولوجي؟ الإنسان إنسان، وله قدراته وموهبته. لكلٍّ منا موهبته، لكن بشرط تأمين الظروف الملائمة لطاقاته ومواهبه. أما عالمنا الحاضر فلا يسعى إلى خلق تلك الظروف الملائمة، لأنه عالم تكنولوجي. ما نودُّه عبر مشروع منهج الوسطية التربوي، هو أن نثبت عبر الوسائل التربوية أن الكون أكثر ثراء بكثير مما نعتقد. وهنا يمكن للعلم إذا أعدناه للدين، وفصلنا القطيعة التي أحدثناها معه -ولعقود- يمكن أن يلعب دورًا كبيرًا على المستوى التربوي تحديدًا، وأن يبيّن أن في الطبيعة غنى هائلاً ومستويات مختلفة تتكامل وتتوحَّد في أصغر ذرة حتى أكبر ما فيها. أعتقد أن الطبيعة تنطوي على تلك الصورة التي هي مهمة لعالمنا، أعني عالمنا المبني على مستويات مختلفة، وثقافات مختلفة، ولغات مختلفة، وتقاليد وعادات مختلفة. ■

(*) كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن طفيل بـ"القنيطرة" / المغرب.

أديب إبراهيم الدباغ*

عرض حال

على نفسي بكت نفسي.. وروحي إلى روحي اشتكت.. وعلى بعضي بكى كلّي.. وكلّي على بعضي بكى.. ولظى قلبي في قلبي حريق.. وَوَمْضُ روحي في روحي لَهيب...

أنا؟ مَنْ أنا؟ حرقة واحتراق، لَهَبٌ واشتياق.. أتلوَّى وجعًا، وأتقلَّب ألمًا.. صائحًا.. صارخًا.. أَظَلُّ، وعن وعيي أُشَلُّ...

يا رفاق العشق، إلى "دجلةَ" خذوني، واغمسوني واغمروني، ومن رحيقها اسقوني.. لعلَّ نيراني تنكفئ، وحرائقي تهمد.. وإلى مملكة العشاق، متسكعًا أمضي.. أطرق الأبواب، وأنقر على الشبابيك...

افتحوا لهذا المسكين، الذي غدا روحًا مذابًا، ووجدًا حَرَّاقًا، وقلبًا شَوّاقًا...

مَنْ له آسٍ غيركم، ومُعَزٍّ سواكم.. فها أنذا بين أيديكم أضع نفسي.. فبعطفكم اكنفوني، وبنفحات ألطافكم أطفئوا نيراني.. إليَّ التفتوا.. ارمقوني، وهملاً لا تتركوني...

عاشق من أعماق ضريح يصيح، رافعًا عقيرته ينادي.. حيًّا لا زلتُ.. على القيام أعينوني، ومن تحت تراب القبر انتشلوني...

أعرف أنَّ سماءكم تمطر الورود، وتَنُثُّ الرياحين، وتسكب النقاء، وتَصُبُّ الصفاء.. وأنَّ ناديكم بالحياة مترع.. لذلك، مملكتكم جئتُ، وأرضكم دخلتُ...

لعلَّ نظرة من الحبيب تتلمحني، فتحييني، وتطفئ نيراني، وتهدهد أشجاني...

في سلسال من دمع ودم ذابت روحي، ومات جسدي، وتَقَطَّعَتْ أوصالي.. والليل مطبق الجناح، وصراخ عظيم من روح جريح.. يأتي مجلجلاً من أعماق الغاب، وهو ينادي.. هذه السبيل، وتلك الطريق، إلى الحبيب.. من التيه لابد أن تنجو.. موعدنا التلَّة الخضراء، في الليلة القمراء.. حتى إذا ما جئتُ المكان، والوقتَ والأوان، جلستُ أنتظر.. وطال الانتظار وطال.. وإذا بالسماء تستهلُّ، بمزيج من الدمع والمطر.. وعلى عجل تركتُ المكان، وانسَلَلْتُ من الزمان.. فإذا بآلامي تتجمع، وصورًا تتلبس.. وتتحول إلى طائر عظيم الجناح، ناصع البياض.. وإذا به يحلق بكل جراحاتي، في سماء من الحرير الأزرق.. يحلق ويحلق، حتى اختفى وضاع في سحب الغموض.. وأنا أخلد إلى صمت مهيب، مصدوع الفؤاد، نازف الروح.. ولكنني بدأتُ ألمس من نفسي دلائلَ تبدل روحي، ما من شيء يستطيع أنْ يوقفه أو يخنقه...

وشرعتْ روحي ترسل نورًا هادئًا يغشى الطريق، ويشير إلى معالمه.. فسارت قدماي وهما تغتسلان بأنوار القمر، فوق العشب الأخضر.. فامتلأ قلبي شوقًا وشغفًا، وأَحْسَسْتُ أنَّ إنسانًا جديدًا انبعث من داخلي يقول: متى في صلاتك تتلاشى وتذوب وكأنك ما كنتَ ولا تكون؟!

هل مرةً شربتَ من نبع روح محمد عليه السلام؟! متى هززتَ بصلاتك السماءَ، بل الخليقةَ كُلَّهَا.. قُلْ لي متى كان ذلك منك؟!

فاهتزت مشاعري هَزًّا، ومددتُ يدي إلى أعماقي أَرُجُّها رَجًّا.. فإذا بي أسمع دوي ذلك في أُذُنيَّ وشوشة وطنينًا، وأنَّاتِ أنين.. ثُمَّ.. لا جواب.. لا جواب! ■

---

* كاتب وأديب عراقي.

د. السيد حامد السيد*

أسس القيادة والإدارة في ضوء قصة ذي القرنين

نستعرض فيما يلي، الأسس والمهارات الواجب توفرها في القائد أو المدير الناجح، في ضوء أحداث قصة "ذي القرنين" في القرآن الكريم.

١- الإيمان بالله

القائد الناجح، هو الذي تنبع قوته من إيمانه بالله العزيز الحكيم. وإيمانه بالله، هو الذي يرسم له منهجه في العمل وتعامله مع الآخرين. فهو صاحب رسالة نابعة من منهج الله ﷻ، يعمل على تحقيقها على أسس

وضعها الله ﷻ لصالح البشرية وعمارة الأرض. فذو القرنين، عبد من عباد الله الصالحين، مكنه الله في الأرض وآتاه من كل شيء سببًا فأتبع سببًا. رسالته وتنقلاته في أنحاء المعمورة كانت للدعوة في سبيل الله ﷻ والعمل الصالح، وقيادة الأمم لما فيه صالحها. وهذا ما وضح من رحلته إلى "مغرب الشمس"، كذا إلى "مطلع الشمس"، وإلى بقعة من الأرض يسميها القرآن الكريم "بين السدين". ولقد اتسم حديثه دائمًا بذكر الله ﷻ والثناء عليه سبحانه، فلقد بدأ حديثه إلى شعب "دون السدين" بقوله: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾(الكهف:٩٥)، وقال عندما انتهى من إقامة الردم بضخامته وإعجازه: ﴿قَالَ هَـذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾(الكهف:٩٨). وفي هذا ما يشير إلى قوة إيمانه بالله سبحانه وإرجاع كل أمره إلى الله العليم الحكيم.

٢- أمانة القائد

الأمانة سمة أساسية يجب أن تتوافر في القائد أو المدير الناجح. فلقد وُكِل إلى ذي القرنين، أمانة التعامل والتصرف مع القوم عند مغرب الشمس من قِبَل الله ﷻ، ولا يكون ذلك إلا لقدرته على تحمل المسؤولية وأمانة ما وكل إليه، قال الله تعالى: ﴿قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾(الكهف:٨٦). كذلك عندما شرع في بناء الردم كان أمينًا على ما في أيدي القوم من ثروات، فعندما عرضوا عليه جَعْلَ خَرْجٍ له نظيرَ إقامته سدًّا لهم، لم يطمع فيما بأيديهم، ولكن قال معقبًا: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾(الكهف:٩٥).

وكان أمينًا على ما في أراضيهم من ثروات ومعادن، فرغم أن معه الجند الكثير إلا أنه أرادهم أن يكتشفوا بأنفسهم ما في أرضهم من ثروات معدنية وخامات، فقال لهم: ﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾(الكهف:٩٦)، و﴿قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾(الكهف:٩٦).

وكأني أراه يحثهم بقوله: اذهبوا إلى أرضكم.. ثيروا الأرض.. اكتشفوا ما في باطن أرضكم من ثروات ومعادن.. ولا يطَّلع عليها أحدٌ غيركم...

وكان أمينًا على أرواحهم، فشرع على الفور يقيم لهم ردمًا يحميهم من قوم يأجوج ومأجوج، وذلك بمعاونتهم له بقوة. تلك هي الأمانة التي هي روح القيادة والإدارة وأساسها، والتي يرضاها الله ﷻ فيمن يلي أمر الجماعة.

٣- التطبيق الفعلي لقوانين الجزاء والعقاب

﴿قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا ۞ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾(الكهف:٨٧-٨٨). إن دستور عمل ذي القرنين، والذي أوضحه في هاتين الآيتين الكريمتين يتلخص في وضع نظام للعقوبات والحوافز...

• ويتمثل في معاقبة الظالم، بأن يوقع عليه عقابًا دنيويًّا يظهر للجميع، حتى يكون رادعًا لكل من تسوّل له نفسه فعل المحرمات أو التقصير والإفساد في الأرض والظلم.

• مكافأة الأفراد المتميزين في أخلاقياتهم وأعمالهم والحوافز عند ذي القرنين تنقسم إلى حوافز مادية وتمثلت في قوله: ﴿فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى﴾. وحوافز معنوية وجاءت في قوله: ﴿وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾، أي سنثني عليه بالقول، ونكرمه ونعلي من شأنه. وهذه الحوافز لازمة للأفراد، فهي تقوي وتزيد الدعامات النفسية لديهم وتحفزهم لمزيد من الجهد والعطاء.

٤- المهارات في التعامل مع مختلف الجنسيات

لقد ورد في قصة ذي القرنين، أنه ذهب إلى عدة بقاع من الأرض؛ وهي مغرب الشمس، ومطلع الشمس، وبين السدين، الأمر الذي يلفت انتباهنا إلى أن ذا القرنين قد تعامل مع جنسيات مختلفة، في بقاع متباعدة على كوكب الأرض. وفي هذا إشارة إلى أن المدير أو القائد الناجح، لابد أن تكون له القدرة على التعامل والتكيف مع أنماط عدة من البشر، وفي بيئات مختلفة، ويتكيف بسرعة مع الظروف غير العادية، والتعايش مع كافة الظروف والبيئات.

كذا ضرورة أن يجيد التخاطب والتفاهم بلغات مختلفة. فعندما ذهب ذو القرنين إلى مغرب الشمس، تحدث مع القوم بلغتهم، كذلك عند مطلع الشمس، وعندما التقى بالقوم عند "بين السدين" -وهم لا يكادون يفقهون قولاً- استطاع أن يقودهم بمهارة فائقة، وتعامل معهم بوسيلة للتخاطب، فهموا كل خططه وتوجيهاته حتى أتم بناء الردم الضخم لهم.

وفي هذا إشارة إلى أن القائد الذي تتطلب ظروف عمله التنقل بين أقطار مختلفة (القائد العالمي)، يجب عليه أن يجيد التخاطب بأكثر من لغة.

وتوفر وسائل الاتصال بين القادة والمرؤوسين، ضرورة حتمية لقيادتهم وتحقيق الأهداف المرجوة. ومن أهم هذه الوسائل، تواجد القائد أو وليّ الأمر بينهم، والتحدث إليهم بلغة يفهمونها.

٥- القدرات الذاتية والخبرات للقائد

لقد أشار القرآن الكريم في سياق الآيات الكريمة في هذه

القصة، إلى أن القائد لابد أن يكون أهلاً للثقة، وأهلا للخبرة. والإشارة لكونه أهلاً للثقة جاءت في قوله ﷻ: ﴿قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾(الكهف:٨٦). والإشارة لكونه أهلاً للخبرة ما ذكرناه آنفا في قوله ﷻ: ﴿كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾(الكهف:٩١)

ولقد ساق الذكر الحكيم الإشارة إلى خبرة ذي القرنين بصيغة النكرة ﴿خُبْرًا﴾، أي إن الخبرة لديه تتعدد وتتنوع ما بين الخبرة الإدارية، والخبرة في فنون القيادة، والخبرة العلمية والمهنية في مختلف المجالات، والقدرة على التعامل مع مختلف الأجناس في ظل متغيرات متباينة... وهذا ما وضح في قيادته لشعوب الأرض، مما يدل على الخبرات المتعددة لديه... ولقد بلغت تلك الخبرات والإمكانيات من العظمة، أن يذكر الحق سبحانه إحاطته بها تشريفًا وتعظيمًا بشأنها.

وهذه الخبرات لازمة لقيادة التابعين، حيث تساعد على اتخاذ القائد أو المدير، للقرار المناسب إزاء كل موقف حسبما تقتضيه ظروفه.

٦- الثقة في الآخرين

إن إنجاز أي عمل لا يتم على الوجه الأكمل، إلا بالثقة المتبادلة بين القادة ومرؤوسيهم. فلابد للقادة أن يمنحوا الثقة لتابعيهم ويشعروهم بها، ويُذكُوا فيهم قدراتهم الذاتية وثقتهم في أنفسهم. تلك الحقيقة أعلنها ذو القرنين وهو يتحدث إلى هذا الشعب المتكاسل الذي لا يجيد إلا دفع الخراج بقوله: ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾. وكأني به يقول: ليس بالخراج يُشترى أمنكم، ولكن بقوة أبدانكم، وبفكركم تصنعون أمنكم.

فها هو الممكّن في الأرض، والتي دانت له، مشارقها ومغاربها، وحكم شعوبها يطلب العون منهم. لقد نفخ فيهم من روحه، وذكّى قدرتهم الذاتية فأكسبهم ثقة في أنفسهم، فتحولوا إلى طاقات بشرية هائلة نفّذت أكبر ردم.

٧- الرؤية المستقبلية وبراعة التخطيط

القادة لابد أن يكون لهم "رؤية مستقبلية"، كي يستشعروا بها الأحداث المستقبلية برؤى مدروسة ومنطقية، ويقيمون عليها المتطلبات اللازمة لتحقيقها، لذا قال لهم: ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾.

إن يأجوج ومأجوج بكثرتهم، سيعيثون في القوم فسادًا طيلة حياتهم وحياة ذرياتهم من بعدهم... تلك هي الرؤية المستقبلية التي رآها ذو القرنين، وبدراستها جيدًا، وضح الهدف ومتطلبات تنفيذه. فالأمر يستلزم إقامة ردم ضخم على أعلى تقنية، يمنع هجمات قوم يأجوج ومأجوج على هؤلاء القوم والبشر في كل زمان ويبقى أبد الدهر، لذا هتف فيهم قائلاً: ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾.

٨- القدرة على إدارة الاجتماعات

شعب خائف لا يكاد يفقه قولاً، عدو لا طاقة لأحد عليه... إنها أزمة بحق... فكيف أدار ذو القرنين اجتماع شعب في أزمة؟ فلنرى كيف سارت الأمور...

• لقد استمع إلى القوم أولاً وهم يعرضون عليه أزمتهم. هم الذين تحدثوا أولاً: ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾(الكهف:٩٤).

• الموقف يستلزم تهدئة الحضور والسيطرة على زمام الموقف، حتى يتهيأ الجميع لتلقي المهام. فما كان من ذي القرنين، إلا أن بدأ حديثه بالثناء على الله ﷻ وما منَّ عليه من إمكانيات كثيرة، فأشاع جوا من الطمأنينة: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾.

• احترام رأي الآخرين، فلم يوجه إليهم نقدًا فيما أبدوه من حل لأزمتهم، حتى لو كان فيه ما يثير حفيظته بقولهم له: ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾. إنه الممكّن في الأرض، ذو الجاه والسلطان، وهاهم يشترطون عليه أن يدفعوا له نظير قيامه بعمل لهم، ورغم ذلك لم يستدع ثورته ولم ينفعل، ولكن بهدوء قال لهم: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾.

• ثم بدأ في جذب اهتمام الحضور واستثار عقولهم فهتف فيهم: ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾.

• القدرة على إيجاد حل لما يعرض عليه من مشاكل، واطلاع الحضور على المهمة المطلوب منهم تنفيذها: ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾.

• إجادة التخاطب؛ فالقوم لا يكادون يفقهون قولاً، وكان له في هذا عذر في عدم مساعدتهم، ولكن لابد أنه اجتهد في الوصول إلى وسيلة للتخاطب معهم والتأثير فيهم ببلاغة منطقه وقوة حجته، مبينًا لهم ما سيكون لهم من ثمرة جهدهم ألا وهو صناعة أمنهم. وكان ذلك من خلال رسالة قوية وبليغة ومختصرة، جمع بها شتاتهم ليحوّلهم إلى قوة بشرية هائلة متحفزة، تنتظر الأوامر الصادرة لها لتعمل بجد خلف قيادة مؤمنة وحكيمة. تلك هي القيادة التحويلية التي تحول الجموع

المتكاسلة إلى قوة بشرية هائلة تنفذ أكبر مشروع على الأرض.

٩- القدرة على اتخاذ القرارات

وتلك القدرة تستلزم في فكر القائد مراحل مدروسة ومنطقية لصناعتها، وهي على النحو التالي كما تصورناها:

• **تحديد المشكلة:** في حالتنا تلك هي إغارة يأجوج ومأجوج على القوم والإفساد فيهم، والقوم لا يملكون سبل استثمار طاقتهم البشرية وثرواتهم، كما ظهر من حديث القوم لذي القرنين.

• **جمع البيانات حول المشكلة:** وفي هذه القصة القرآنية الجليلة، نرى -والله أعلى وأعلم- أنها جاءت من مصدرين:

المصدر الأول: قد يكون عِلم ذي القرنين بإفساد يأجوج ومأجوج في هذه المنطقة قد جاءه من قبل الله ﷻ، وبكيفية لا نعلمها، فانطلق إليها.

المصدر الثاني: علمه بها جاء بمعاينته إفساد يأجوج ومأجوج عندما بلغ بين السدين أولاً، قبل أن يلتقي بالقوم دونهما وما يدلنا على قول الحق سبحانه: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً﴾(الكهف:٩٣). والسياق القرآني في غاية البلاغة والدقة، وفي تدبره يعطي بحورًا من المعرفة والحكمة. فمن هذه الآية الكريمة يظهر لنا بجلاء أن ذا القرنين بلغ بين السدين أولاً، فعاين إفساد يأجوج ومأجوج، ثم انتقل إلى منطقة دونهما، أي بالقرب منهما، قال سبحانه: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا﴾(الكهف:٩٣)؛ هناك التقى بالقوم، فأخذوا يعرضون عليه أزمتهم، الأمر الذي وافق ما لديه من معرفة مسبقة "عن إفساد يأجوج ومأجوج" ما تحدث القوم عنهم وعن إفسادهم، لذا اتخذ القرار بإقامة ردم ضخم بينهم وبين يأجوج ومأجوج.

المصدر الثالث: من القوم أنفسهم -كما ذكرنا آنفا- وقولهم: ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ﴾.

• **الحكمة في الاختيار بين البدائل المتاحة:** إن أحسن البدائل في هذه الأزمة، هو إقامة مانع حصين بالموارد المتاحة، بين القوم وبين يأجوج ومأجوج.

• **رسم خطط التنفيذ:** وهذه لابد أن يكون لها تصور كامل في فكر القائد؛ كيف يخطط، وكيف تكون البداية، وكيف يستثمر كل الإمكانيات، وما هي معدلات الأداء المطلوبة لإنهاء العمل على الوجه الأكمل وفي الموعد المحدد.

• **مرحلة صياغة القرارات وإصدارها:** وهي القرارات التي أصدرها ذو القرنين، والتي جاءت بقوة على النحو التالي: ﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾، ﴿انْفُخُوا﴾، ﴿آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾(الكهف:٩٦).

• **متابعة تنفيذ القرارات:** فلقد كان ذو القرنين بينهم، يده بيدهم وهم يقيمون الردم، لهم مهام وله مهام ينفذها، وهو متواجد بينهم، ويتابع مراحل التنفيذ وهو بالقرب منهم. فالاتصالات الفعالة بين القائد والتابعين، من أساسيات إدارة الأزمات، فلا هناك وقت يضاع.

١٠- إدارة الوقت

المقولة تقول: "الوقت = نقود"، وفي الأزمات: "الوقت = حياة". والسياق القرآني الجليل في هذه القصة، يلفت أنظارنا إلى أهمية عامل الوقت والاستخدام الأمثل له، وذلك من خلال إشارات لطيفة في أثناء تنفيذ الردم. فبعد عرض فكرته عليهم بدأ في التنفيذ على الفور بقوله: ﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾. فإذا انتهت مرحلة، بدأ بالمرحلة التي بعدها على الفور: ﴿حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾.

وبدراسة مراحل تنفيذ "مشروع الردم" الذي أقامه ذو القرنين بمعاونتهم له، نرى أن هناك عدة أنشطة قد بدأت معًا استثمارًا للوقت وعدم إضاعته؛ حتى إننا نستطيع أن نؤكد أن الشعب كله كان في حالة استنفار، وتوزعت المسؤوليات وأدى جميع أفراد المجتمع دوره بإتقان وفي تسلسل متتابع لمراحل تنفيذ الردم.

١١- القدرة على تكوين فِرَق العمل

القرآن الكريم أشار في هذه القصة الرائعة على أن هناك فِرَق عمل تكونت لتنفيذ هذا العمل المعجز، ولقد وزع ذو القرنين أدوارًا ومراحل للعمل عليهم ونسق بينهم. ولقد ظهر هذا جليًّا من الآيات الكريمة، فتكونت فِرَق العمل الآتية:

١- فريق لإحضار الحديد وتكون فور قوله ﷻ: ﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾، وما يستلزم هذه المهمة من التنقيب عن خام الحديد، والكشف عن مناجمه وإعداده على الصورة التي طلبها ذو القرنين، ونَقْله إليه عندما يطلبه.

٢- فريق للتجهيزات والمعاونة، وهذا الفريق يتولى تعبيد

الطرق وإعدادها من مواقع الحديد، ومواقع النحاس، وأفران صهره، حتى موقع الردم. كذا المعاونة فيما تستلزمه المساواة بين الصدفين، والذي يتولاه ذو القرنين.

٣- فريق لإيقاد النيران، وهذا الفريق يتولى إعداد مواد وخامات الاشتعال، كذا أدوات النفخ والبدء في النفخ لإشعال النيران عندما يطلب ذلك ذو القرنين في الوقت المحدد.

٤- فريق لإعداد النحاس المذاب، وهذا الفريق يتولى؛ اكتشاف خام النحاس، ونقله إلى أفران صهره، والتي يقيمونها، ثم صهر النحاس ونقله إلى موقع الردم عندما يطلبه ذو القرنين. وهذا كله قد وضح من قول ذي القرنين إجمالاً، دون الدخول في هذه التفاصيل بقوله ﷻ: ﴿آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾.

هذه بعض الفرق التي نستطيع أن نجزم أن هذا العمل قد تطلبها -وأكثر من تصورنا هذا قد حدث- لما يتطلبه هذا العمل الضخم من فرق لتنفيذه، حتى إننا نتخيل أنه لابد أن الشعب كله قد عمل فيه، وذلك للحاجة إلى كثير من الأيدي العاملة لتنفيذه. ولا نستطيع أن نتخيل كيف شرح ذو القرنين وبيّن لكل فريق عمله وواجباته وأن يؤدي كل فريق عمله على أكمل وأتم وجه.

ولا ننسى أن القوم لا يكادون يفقهون قولاً، وكيف تابع ذو القرنين المراحل البعيدة عن موقع الردم عندما كان يساوي بين الصدفين وهناك من يعمل بعيدًا عنه في الكشف عن عنصري الحديد والنحاس وتصنيعهما، ونقل الكميات المطلوبة منهما، كذا خامات ومواد الاشتعال... وكان لابد لهذه الفِرَق أن تتولى إدارة أنفسهم بأنفسهم.

وكأني بذي القرنين قد فوض بعضًا من مهامه الإشرافية لأفراد من الشعب. وهذا ما نطلق عليه في إدارة الأعمال "التفويض"، ولقد نجحوا في هذا. وتلك ما تنادي به النظريات الحديثة في "القيادة"، و"إدارة الأعمال".

١٢- القادة يجب أن يكونوا قادة تغيير إلى الأفضل

أراد ذلك ذو القرنين فحول هذه الأمة، من أمة تشتري سلامتها إلى أمة تصنع سلامتها. ومن شعب متكاسل إلى فِرَق عمل متعاونة تسعى بجدٍ لتحقيق أمنهم، من خلال إنجاز مشروعهم الضخم. فأكسبهم قيمًا جديدة تمثلت في حب العمل، الثقة في النفس، إدارة أنفسهم وأعمالهم ذاتيا، الكشف عن مصادر ثرواتهم، اكتساب مهارات جديدة، معرفة تكنولوجيا جديدة، تقدير قيمة الوقت، بث روح التعاون بينهم، اكتساب قيم وأخلاقيات جديدة تنبع من إيمان هذا القائد العظيم.

١٣- إنكار الذات والتواضع

القادة يجب أن يعظموا أهداف المنظمة، وينكروا ذاتهم في سبيل الجماعة لينالوا ثقة الآخرين واحترام مرؤوسيهم لهم. ولقد ضرب لنا ذو القرنين المثل الأعلى في هذا بقوله: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾(الكهف:٩٥).

وكأني به يقول لهم: لم آت إليكم من أجل المغنم، ولكن جئت من أجلكم متطوعًا، أطلب العون منكم بقوة، ساعدوني لأجعل بينكم وبينهم ردمًا، يحميكم ويحمي ذرياتكم من بعدكم. ثم انظر إلى تواضعه الجم؛ وبعد أن أتم العمل الخالد والمعجز، رد الأمر إلى الله ﷻ: ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾(الكهف:٩٨). إنه الممكّن في الأرض، يطلب العون ليبني الردم، وينصهر معه الشعب، ثم لا يغتر بعمله تواضعًا لله ﷻ.

١٤- وضع معايير عالية لتقويم الأداء

﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾(الكهف:٩٧). إن القرآن الكريم، يعلمنا أن كل عمل يعمله الإنسان، لابد أن يكون مؤديًا للغرض الذي أقيم من أجله. فالردم الذي تم بناؤه بين يأجوج ومأجوج، والقوم المستضعفين، لابد أن يحقق هدفين؛ الأول، أن يكون من المتانة والقوة بحيث لا يمكن أن يحدثوا فيه ثقبًا ينفذون منه. والثاني، أنه عال جدًّا يصعب عليهم أن يتسلقوه، ولقد حقق تنفيذ الردم هذين الهدفين.

فعلى القادة حين يخططون لتنفيذ الأهداف، أن يضعوا نصب أعينهم أعلى المعايير لجودة الأداء، ليصلوا بفِرَقهم إلى أفضل النتائج، وعليهم أن يُقيّموا ما أتموه من عمل على المعايير المطلوبة للعمل، فها هو ذو القرنين، وبعد أن تماسك الردم وتماسك معه الشعب وتم العمل، ينتقل إلى مرحلة اختبار العمل وكأنه يقول لهم: حاولوا أن تَظهروه... حاولوا أن تنقبوه... فلم يستطيعوا... ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ۞ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾(الكهف:٩٧-٩٨). ■

(*) باحث في مجال الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة المطهرة / مصر.

طه كوزي*

ترجمة الفكر

من "بيت الحكمة" إلى "غوغل"

لا ريب أن ترجمة الفكر ليست مجرد نقل شتات أفكار نزيهة ومحايدة من لغة إلى أخرى لا تحمل في ثناياها تحيزات صاحبها ومواقفه... ففعل الترجمة ليس ميكانيكيا فوتوغرافيا يحرص فيه صاحبه على نقل المباني من لسان إلى لسان، وليس بائعًا من باعة اللفظ في سُوقِ نِخاسة المعاني والأفكار... إنه خلاصة الإيمان بسنة "التداول" بين الأمم في الانتصار والانكسار، وعصارة حسن التدبير في البناء الحضاري والإعمار الإنساني.

الترجمة رحلة صدق

الترجمة مؤشر على ارتفاع منسوب الفكر والمعرفة عند أمة (مترجَم لها) وانكسار أخرى (مترجم إليها)، ليروي بذلك تاريخ الترجمة قصة التدافع الحضاري بين بني الإنسان؛ أمةٍ تعيش ذروة الحضارة وتؤذن بما بعدها (ما بعد الحضارة)، أنتجت علمًا ومعرفة وخبرة... وأمةٍ أخرى تعصرها أزمةٌ معرفية؛ أفاقت للتو من دُوار حضاري، وانتكاس نفسي، تعيش ملامح "ما قبل الحضارة"، فانكبّت بين أقدام المنتصر متتلمذة ناقلةً المعارف، علّها تكون محرّك الانطلاق، ووقود الانعتاق من جاذبية التخلف والجهل والاسترخاء الحضاري.

إنها شريحة زمنية تتآلف مشاهدها كلما ازددت استكشافًا لأغوار الماضي سابحًا سائحًا، ابتداء من الحضارة الصينية الشرقية إلى الإغريقية الغربية، ومن ثم إلى الحضارة الإسلامية في محطّاتها التاريخية المختلفة معلِّمة حينًا ومتتلمذة حينًا آخر، لتجد نفسك بين يدي "هارون الرشيد" (٧٨٦-٨٠٩م)، و"المأمون" (٨١٣-٨٣٣م) من بعده، وهما يؤسسان لجهود الترجمة من الفكر اليوناني إلى اللغة العربية[1] من خلال ترجمة فنون وصنوف شتى، ابتداء من كتاب "الأخلاق الكبرى" لأفلاطون، وكتاب "مواضع الجدل" (Topique) لأرسطو، إلى كتابات بطليموس بعنوان "تيترابيبلوس" (Tetrabiblos)... هذا الحراك المعرفي خوّل رجلاً اسمه "الخوارزمي" من بعدُ، نسْجَ أول كتاب في "الجبر والمقابلة". وتقف بك عجلة الزمن فجأة عند "الرجل الغربي" وهو يسابق الدقائق والثواني في ترجمة ما انتهت إليه حضارة المسلمين في "بلاد الأندلس" يوم سقطت "غرناطة" سنة ١٤٢٢م، حين آذنت كلمات "أم المعتمد" بانحدار "حضارة الأندلس" قائلة لابنها الخليفة "أبي عبد الله الصغير" حين أضاع الملك: "ابك كالنساء على مُلك لم تحافظ عليه كالرجال". إنه

تاريخ الترجمة الذي يروي قصة رِيّ بعد عَيّ، وفيض بعد غيض.

... محفوفة بالمخاطر

مهمة الترجمة الفكرية محفوفة بالمخاطر، ومُحاطة بالمحاذِر؛ فترجمة الفكر ليست نقلاً بريئًا محايدًا لمجموع المعلومات والمعارف والخبرات التي أفرزتها حضارة إنسانية ما، بعد اتباعها الأسباب الكونية، حيث تتطابق المعارف مع الكون اطّرادًا. فترجمة "الفكر" تعني ترجمة "النسق" الفكري الكامن وتبنيه بوعي أو بدونه، ويعني انتقال الخصيصة مع الفكرة والمعرفة؛ سريان الأملاح المعدنية في "نسغ نباتي ناقص"، إلا أنّ النسق الكامن ليس نهائيًا، بل يمكن تجاوزه باكتشاف كلياته الخفية، ومواقفه الكونية المضمرة غير المعلنة. إن ترجمة الفكر تعني ترجمة النسق، والتصدي لعملية زرع دقيقة وحساسة لرقعة معرفية ومعنوية ضمن نسيج فكري جديد، يحرص فاتلُه على التناغم في اللون، والتماسك في اللحمة، والتآلف في المبنى، والتكاتف في المعنى.

ولعلي أضرب مثالاً غاية في البساطة؛ إذ نعدّد في اللغة الإنجليزية ضمائر الغائب المفردة ثلاثةً، وهي للمذكر "هو" (He)، وللمؤنث "هي" (She)، وللمحايد ويُطلق على عالم الأشياء والحيوان (It)، إلا أن المرء يقع في المفارقة الآتية:

• فتجد أن الطبيعة (Nature) في اللغة الإنجليزية -التي هي باعتبار رؤيتنا الكونية- مخلوقًا غير عاقل ولا مريد، يعبَّر عنه بضمير التأنيث العاقل المريد (She)، فهل هذه التركيبة اللفظية محايدة وبريئة؟ أم إنها تحمل نسقًا كامنًا، وتعلن تحيزًا كونيًّا فاضحًا في مستوى الرؤية الكونية؟ وهل نحن ملزمون بتبني اللفظ رغم كراهة رائحة دلالته الفكرية والكونية؟ أم أن هذا الكلام كلّه حذلقة وثرثرة؟

• ولْنضرب مثالاً آخر؛ ينوب عن لفظة الصبي (Baby) ضمير (It) الذي يعبَّر به عن "عالم الأشياء" و"عالم الحيوان"، فهل سترى وأنت تتأمل في ابنك الطفل؛ فترى إلى ابتسامته على أنها ابتسامة "دُمية"، أم بسمة "طفل/إنسان"، أم أنك ستضطر إلى أن تعُدَّه "أقنوما"[٢] -في أحسن الأحوال!- حين تحدّثه بالإنجليزية، وتُعيد إليه إنسانيته فجأة حين تحدّثه بلسان عربي مبين؟ فهل الترجمة تحويل لبُنيات لغوية صماء من لغة إلى أخرى، أم أن الأمر أدق وأخطر؟

النسغ الكامل

الانتقال بالفكرة من لغة إلى أخرى، تَحَوُّل في النسق لا في اللفظ، وانتقال من عالم مصطبغ بخصائص موضوعية وذاتيةٍ لا تنفك عنه، إلى عالم جديد يحمل ذات النسق وإن تبدّلت البنية. فالترجمة الفكرية عالم يتلاحم فيه المؤلف بالمترجم، وينصهر المترجم في ذات الفكر فيصير قارئًا ومفسرًا ومؤلفًا في الوقت نفسه، ليحمل مع صاحب النسق جذوة فكره التي تلفح صفحات لفظه، ويقاسمه همومه وآلامه التي تؤجج سهاد ليله، فيميز بين اللفظ الذي يُصافيه المفكر؛ فيبوح له بأوار ما اتقد في عقله، واللفظِ الذي يجنّده ليعبر به تارة عن رضاه وتارة عن سخطه. ترجمة الفكر ليست معادلة رياضية صارمة صامتة لا تعرف الضحك ولا البكاء، ولا بُنية صمّاء باهتة لا تفقه لغة الألوان وسحر الأذواق وفتنة الحكمة الحوراء... إنها ترجمة الجوهر والروح، لا ترديد الصدى و"غوغلة"[٣] المعنى والمبنى، فلا يصلح لترجمة النسق -ابتداءً- إلا من حمَل خصائص الفكر الذي يترجمه قلبًا ولبًّا، وتلاحمت ذاته بذات الفكر فهمًا وحُبًّا.

الترجمة ترجمة السياق (Sens)[٤]

تكتسي ترجمةُ الفكر بُعدًا أسمق وأعلى، فبالإضافة إلى كونها ترجمة "نسق" فهي كذلك ترجمة "سياق"، إذ بؤرة التركيز في الترجمة ليست تقليص المسافة اللفظية الفاصلة بين الدال ومدلوله بين اللغتين، بل المقصد اعتبار تغيّر المناخ الفكري والمعنوي واللفظي.

لعل من أوضح الأمثلة وأكثرها طرافة، والميسّرة لهذا المعنى؛ تباين التعبير بين الرجل العربي والرجل الفرنسي عن كلمة طيبة أفاضت قلبه بهجة، ورفلت بمهجته سعادة وحبورًا. فالرجل العربي حين يسره لفظ طيّب أو كلِم حسن يقول: "لقد أثلجت صدري"، لكن ترجمة هذه الدلالة إلى اللغة الفرنسية -مثلاً- ستكون على النحو الآتي: (ça m'a réchauffé le cœur) بمعنى: لقد جعلت قلبي دافئًا بحسن كلامك... والمراد من القول إن الترجمة هنا لم تكن البؤرة فيها ترجمة درجة الحرارة موضوعيًّا من اللغة "أ" إلى اللغة "ب"، بل المقصد ترجمة السياق لا اللفظ، لأن بيئة الرجل العربي والرجل الفرنسي محدِّدة في البيان؛ فيصير المعنى المراد إبلاغه أن أثر الكلمة الطيبة على المرء كحلاوة العثور على مكان للدفء أوان القرّ، أو إثلاج الصدر أوان الحرّ. إن الترجمة الحرفية لهاتين العبارتين ستجعلان "العربي" يستشهد لفرط الاحتباس الحراري! والفرنسي يموت لدخوله العصر الجليدي (دون سابق إنذار)! هذه فاتورة الترجمة الحرفية الأيقونية التي لا

تراعي النسق ولا السياق.

مصطلح "الترشيد": نموذج تطبيقي

في هذا السياق يعالج الدكتور عبد الوهاب المسيري إشكالية توظيف مصطلح "الترشيد" دون النظر إلى التحيزات والمنطلقات فيقول: "ولْنأخذ مصطلحًا مثل "Rationalisation" وهو ترجمة لمصطلح ألماني استخدمه المفكر ماكس فيبر؛ ويُترجم مصطلح الترشيد أو العقلنة، إذ اشتق من كلمة "Raison" والتي تعني "العقل"، وتعرّف المعاجم عملية الترشيد بأنها عملية استيعاب الغيب والسحر من المعرفة، وتطبيق المناهج العلمية البيروقراطية غير الشخصية على إدارة المجتمع. حسنًا، ولكن "فيبر" نفسه عرّف الترشيد بأنه تحويل العالم إلى حالة المصنع، كما قال: "إن عملية الترشيد ستؤدي لا إلى مزيد من الحرية للإنسان، وإنما إلى القفص الحديدي وإلى أزمة المعنى". ويرى كثير من دارسي المجتمعات المتقدمة الحديثة أن كثيرًا من نبوءات "فيبر" قد تحققت، وأن ظهور نظم شمولية منهجية رشيدة مثل النظام النازي، هو تعبير متطرف عن عملية الترشيد، وأن تنميط الوجود في المجتمعات الديموقراطية هو تعبير عادي عنها، وأنها مجتمعات لم تعد تسأل لماذا؟ وإنما تسأل كيف؟ وتركز على الإجراءات دون الغايات، ولذا فهي مجتمعات تنغلق داخل المرئي والمحسوس.

بعد نبوءات فيبر، وبعد تحقق معظمها، ما زلنا نصرّ على تسمية الظاهرة ترشيدًا... ألم يحن الوقت أن نسمي الأشياء بأسمائها؟ وإذا كانت الظاهرة بدأت بالترشيد وانتهت بالسجن، فلِم لا نسميها بمصطلح آخر لنبين الجوانب المظلمة فيها والتي ظهرت من خلال الممارسة التاريخية؟ أحيانًا يبلغ التردي منتهاه فلا نترجم المصطلح، وإنما نكتفي بتعريبه[٥]. ■

[٥] كاتب وصحفي ومدير تنفيذي، معهد المناهج / الجزئر.

الهوامش

[١] انظر، الفكر اليوناني والثقافة العربية، لدمتري كوتاس.

[٢] انظر، الأقانيم الثلاثة وآلهة من الحلوى: الطفل، المرأة، الحاكم.

[٣] "غوغلة"، نسبة إلى شركة المعلوماتية الأمريكية (Google)، والمراد هو التعبير عن تحويل الترجمة إلى حرفة آلية ذرية غير قادرة على توليد المعاني المركبة المتماسكة.

[٤] يمتلك مصطلح (Sens) باللغة الفرنسية خاصية تركيبية عالية، حيث يحمل دلالة الوجهة/المعنى.

[٥] اللغة والمجاز، لعبد الوهاب المسيري، ص:٢٠٧.

حراء
مجلة علمية فكرية ثقافية
www.hiramagazine.com

كيف يصل

عيناك مظلمتان،
للنور ظامئتان،
وللجمال مشوقتان...
أتحسب يا مسكين،
أنّك قادر على قطع الطريق بعينيك المطفأتين،
والوصولِ إلى خاتمة المسير؟!
وأنَّى للقلب أن يَحيى إذا تاه عن مولاه؟!

* * *

د. فؤاد البنا*

المسلم وإعلام الآخر
بين "السماع" و"الاستماع"

رغم أن اللغة العربية أغنى لغات العالم بالمفردات، إلا أنها لا تحتوي -في الراجح- على ما يسمى بـ"الترادف". فمع وجود كلمات يُقال إنها مترادفة، إلا أن هناك فروقًا دقيقة بينها، مثل كلمتي "السماع" و"الاستماع" الواردتين في عنوان هذه المقالة.

فمع التشابه في المعنى العام بينهما، إلا أن "السماع" يتجه إلى الفعل الذي تقوم به جارحة الأذن، وبجانب هذا المعنى يضيف "الاستماع" حضور العقل وإصغاء القلب. ولذلك طالب الله ﷻ المؤمنين بـ"الاستماع" إلى القرآن: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾(الأعراف:٢٠٤)، وخاطب الله كليمَه موسى عليه السلام بقوله: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾(طه:١٣). وتمتاز العربية بأن زيادة المبنى يدل على زيادة المعنى؛ فـ"الاستماع" أكبر مبنىً وأهم معنىً من "السماع".

خطورة الإعلام

مع أن القرآن كتاب هداية لكل زمان ومكان، إلا أنه احتوى على مبادئ كثيرة من العلوم والآداب والفنون، ومن ذلك الإعلام.

فقد كان كل الرسل أصحاب بلاغ مبين، إذ كانوا أصحاب فصاحة وبيان، ربَّاهم الله ﷻ على عينه، واصطنعهم لنفسه، وسلَّحهم بكلامه البليغ ووحيه الفصيح. ولما كان المصطفى محمد ﷺ خاتم المرسلين فقد كان ملك الفصاحة الذي أدهش أرباب البيان، وصار كتابه الكريم أبلغ الكتب، ونزله الله باللغة العربية لفصاحتها، فمن معاني العروبة: الإبانة والفصاحة. وقد نزل القرآن بالعربية حتى يسهل فهمه وعقله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾(يوسف:٢)، ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾(فصلت:٣).

ولما كان موسى عليه السلام قد أصيب بلثغة في لسانه أثناء صغره، فقد ألهمه الله أن يطلب جَبْرَ هذا النقص بأخيه هارون عليه السلام، كما قال تعالى على لسانه: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾(القصص:٣٤).

وفي هذا إشارة بليغة إلى أهمية الإعلام في الدعوة وخطورته البالغة، حيث يمكن أن يصل إلى حد التجريف وقلب الحقائق وتغيير القناعات، بل ونفخ الروح في الأوهام والأكاذيب.

ويسجل القرآن مثالاً بارزًا في هذا السياق في قصة موسى عليه السلام ذاته؛ فقد سلَّط فرعون أجهزة دعايته للقول بأن موسى

ساحر، حتى استقر ذلك في عقول الناس من كثرة التكرار.

وحتى بعد أن رأى هؤلاء، المعجزات الباهرة الدالة على نبوة موسى، بما فيها آيات العقوبة لهم كالجراد والقمل والضفادع والدم، فقد ظلت عقولهم غير الواعية مزروعة بمسألة السحر المتهم بها موسى عليه السلام. ولهذا فإنهم عندما أرادوا استعطافه ليرفع عنهم العذاب وادَّعوا قبولهم دعوته، قالوا له كما سجل القرآن ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾(الزخرف:٤٩)، وهذا يبين خطورة الإعلام والدعاية والإشاعة، حيث يمكن أن يصل الأمر إلى حد تجريف العقول!

سماع الأذى

من المؤكد أن الآخر الديني أو الحضاري ليس قطعة واحدة متجانسة في كل شيء، بل هو عوالم متعددة مختلفة. وإذا كان القرآن قد عدّ اليهود أشد الناس عداوة للذين آمنوا، فإنه قد قال عنهم: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾(آل عمران:١١٣)، ومن باب أولى غيرهم، ولاسيما النصارى الذين هم أقرب مودة للذين آمنوا، وخاصة في هذا العصر الذي برزت فيه الكثير من التيارات الإنسانية والمؤسسات المدنية.

لقد قرر القرآن وأكّد: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾(آل عمران:١٨٦). وقد سمع المسلمون وسيسمعون أذىً كثيرًا يطال كلياتهم الخمس: دينهم، نفوسهم، أعراضهم، أموالهم، عقولهم.

وقبل ذلك وبعده، فإن منهم من تقوَّلوا على الله بغير علم، فزعموا أنه أمرهم بالفحشاء وقالوا "إن الله فقير"، ورموه بالبخل، وزعموا أنه اتخذ ولدًا، ورموه بكل نقيصة: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾(الإسراء:٤٣).

أما الأنبياء فقد اتهموهم بالسحر والكهانة والشعر، وبأنهم من المسحّرين، واتهموهم بالافتراء والكذب على الله، بل ورموهم بالزنا، وتطيَّروا بهم، وتقاسموا بالله على إيذائهم، وحاربوهم بكل صنوف الحرب والإيذاء.

ولكنْ هل كل ما جاء من الآخر هو إيذاء وحرب؟ وهل نتعامل مع مخرجات إعلامه بذات الطريقة؟

المسلم "سَمَاعٌ" أم "استماعٌ"؟

وفي هذا الزمن يتكرر الأذى ويتكثف ضد مقدسات المسلمين، ويتولى الإعلام الغربي كِبَرَ ذلك تحت مبرر حرية الرأي تارة، ومحاربة التخلف تارة ثانية، ومحاربة الإرهاب تارة أخرى.

ولكن الواقع يقول، إن إعلام الآخر -ولاسيما الإعلام الغربي- يحتوي على مساحة واسعة للحرية والحوار، واحترام حقوق المسلمين، والدفاع عن حرياتهم ومقدساتهم، إضافة إلى وجود ما يمكن التعاون عليه من مشتركات إنسانية، وما يمكن اقتباسه والانتفاع به مما تزخر به الحضارة الغربية من جواهر نفيسة وثمار يانعة.

إن أكثر المسلمين المعاصرين، منقسمون بين من يغلق كل الأبواب والنوافذ بحجة عدم سماع الأذى وعدم السماح للغزو الثقافي بالتسلل إلى حصون المسلمين، وبين من يفتحون الأبواب على مصارعها والنوافذ على آخرها، بمبرر الاقتباس والتفاعل الحضاري، فانغلق القسم الأول وانجرف القسم الآخر.

لهذا فإننا بحاجة ماسة إلى العودة المتدبرة للقرآن، فإنه وحده من يمتلك الرؤية العقلية المتوازنة التي يمكن أن تُنقذنا من تقليد الآخر والذوبان فيه أو الانغلاق عنه وعدم اقتباس النافع المفيد منه.

إن المسلم أشد ما يكون حاجةً لتربية عقلية تمنحه الميزان الذي يزن به كل شيء، سواء كان راكدًا من بقايا السلف أو وافدًا من الحضارة الغربية، فيأخذ ما هو حسن ويتجنب ما هو قبيح، وتعطيه الغربال الذي يُفرز الغثَّ ويستبقي الثمين، بل يميز بواسطته بين أفضل الخيرين وأسوإ الشرين، فيأخذ الأفضل ويرفض الأسوأ.

ولهذا جعل المولى ﷻ من أهم صفات المؤمنين "القولية": ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾(الزمر:١٨)؛ وهذا يعني أن الفكر الإسلامي معنيٌّ بإيجاد "مستمعين"، لا "سمَّاعين"، كما قال تعالى عن الصنف الآخر: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾(التوبة:٤٧).

فالاستماع العقلي إذًا هو طبيعة المؤمنين، والسماع الجارحي هو ديدن المنافقين ومن لا حَظَّ لهم من المعرفة المفيدة والوعي النافع.

وسائل وأساليب صناعة "الاستماع"

يزخر إعلام الآخر بجبال ضخمة من المعلومات والأخبار والشائعات تتراوح بين النفع والضر، ولابد من غربلتها عبر عدد من الوسائل والأساليب، كما توحي بذلك النصوص

القرآنية، ويمكن إجمال أهمها في النقاط الآتية:

١-التّلقّي العقلي والاستماع بجارحة العقل: أكد القرآن أن السمع النافع هو الذي يقترن بالعقل الواعي، كما قال تعالى لنبيه محمد ﷺ الذي أرهق نفسه في محاولة هداية بعض الناس من دون جدوى: ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لاَ يَعْقِلُونَ﴾(يونس:٤٢)، وقال: ﴿إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾(النمل:٨٠).

ولهذا حذّر الله المؤمنين من هذا الداء الوبيل فقال تعالى: ﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ﴾(الأنفال:٢١)، وأكد بأنه لا يستفيد من الآيات -أيًّا كانت- إلا من فتح سمعه وقلبه: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾(ق:٣٧).

ويتضح هذا الاقتران بين السمع والعقل حتى في حديث الكافرين يوم القيامة عن أنفسهم، إذ يتندمون قائلين: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾(الملك:١٠).

وعندما اشترك عدد من المسلمين في تناقل حديث الإفك الذي رماه المنافقون كقذيفة لتمزيق عرض الرسول ﷺ، بيَّن القرآن مكمن الخلل في هؤلاء فقال: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾(النور:١٥)؛ فقد تلقوه بالآذان ونقلوه فورًا إلى الألسنة فكأنهم تلقوه بألسنتهم مباشرة. ولو نقلوه إلى العقل كمرحلة وسيطة، واستخدموا -مثلاً- القياس العقلي على ذواتهم؛ لرفضوه وردوه، كما قال تعالى: ﴿لَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾(النور:١٢)، فكيف لو استخدموا سائر الإمكانات العقلية في ضوء الواقع الوضيء للصحابة الكرام، وأمهات المؤمنين، ولاسيما عائشة الصَّدّيقة بنت الصِّدّيق رضي الله عنهما.

٢-التحلّي بالعلم والتسلُّح بالبراهين: في مثال حديث الإفك الآنف الذكر، وقع بعض المسلمين في شراك المنافقين بسبب التلقي باللسان لا بالعقل، والتقوُّل بدون علم، كما قال تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾(النور:١٥).

ولهذا لابد من توفير المعلومات، وتوضيح الحقائق، وإبراز الوثائق والأدلة والبراهين؛ حتى لا تتشابه على الناس البقر، وحتى لا يستطيع أحد أن يذرّ الرماد في عيونهم!

ولابد من إذابة مساحيق التجميل عن الأوجه القميئة والمضامين القبيحة؛ حتى لا يقع العامة ضحية لها، مثل المصطلحات الجميلة التي تطلق على أمور قبيحة، كالغزو الذي يطلق عليه استعمارًا، والخمور التي تسمى مشروبات روحية، والتغريب الذي يُطلق عليه تحديثًا، وهكذا.

ومن المهم في هذا السياق أن يتم تفكيك الضلالات وتفنيد الشبهات التي يطلقها الأعداء دون البقاء في خانة الردود، بحيث يتم الرد الحكيم: زمنًا، ومكانًا، ومقدارًا، وأسلوبًا.

لقد اهتم القرآن بالرد على الشكوك والشبهات والضلالات، ولهذا وردت كلمة "قل" في القرآن ثلاثمائة واثنتين وثلاثين مرة، وهي تُلقّن النبي ﷺ ماذا يقول للناس، وأكثرها وردت في مثل هذه السياقات.

٣-الإعادة إلى المنهج النبوي وأصحاب التخصصات: عند انعدام العلم في مسألة ما من المسائل التي يقع بها الهجوم والتحدي والاتهام من قبل الآخرين، لا ينبغي الارتجال والتخبط، بل العودة إلى المنهج النبوي وأصحاب العلم والدراية، قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾(النساء:٨٣).

وقد عظَّم الله أصحاب الخبرة بصورة عامة فقال تعالى: ﴿وَلاَ يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾(فاطر:١٤)؛ لأنهم أصحاب دراية وافية بتخصصاتهم.

ويشتد هذا الأمر في الإعلام، لأن الغرب يمتلك صناعة إعلامية ضخمة تتربع على خبرات دقيقة ووفيرة في علوم عدة تتجاوز الإعلام إلى علوم النفس والاجتماع والتاريخ وغيرها... مما يُمكّنهم من التعرف على ثغرات المسلمين وخِلالهم، والتسلل منها إلى الداخل.

٤-إبراز تهافت الدعايات المضادة: في الحروب الثقافية والنفسية التي يتعرض لها المسلمون من قبل متطرفي بعض الثقافات الأخرى، تمتلئ أفكارهم ودعاياتهم بتناقضات كثيرة، ينبغي أن يركز عليها الذين يتصدون لها بعلم، لإثبات تهافتها من خلال هذا الأسلوب العقلي الذي يجعل بعضها ينقض البعض الآخر، وكعادة المبطلين في كل زمان ومكان، فإنهم كما قال عنهم القرآن: ﴿فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾(ق:٥)، أو كما خاطبهم مباشرة بقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ﴾(الذاريات:٨). وما علينا إلا اكتشاف هذه التناقضات وإبرازها للعيان.

٥-الارتقاء بالردود في المبنى والمعنى: في الرد على إسفاف الآخرين، ينبغي أن تكون الردود حكيمة وحصيفة، ولاسيما

أن أغلب غير المسلمين لا يعرفون عن الإسلام إلا الصورة المشوهة التي رسمها مستشرقون في القرون الوسطى؛ لتشويه صورة الإسلام في أذهان شباب أوروبا حتى لا يدخلون فيه، وتعززها الممارسات السيئة لكثير من المسلمين أفرادًا وجماعات ودولاً في هذا الزمن!

وقد أصَّل القرآن لموضوع صناعة "القول" بصورة عامة وفي مشاهد عدة من الحياة، حيث أمر -مثلاً- بأن يكون القول: ﴿قَوْلاً مَعْرُوفًا﴾(البقرة:٢٣٥، النساء:٥-٨، الأحزاب:٣٢). ﴿قَوْلاً سَدِيدًا﴾(النساء:٩، الأحزاب:٨٠). ﴿قَوْلاً بَلِيغًا﴾(النساء:٦٣). ﴿قَوْلاً كَرِيمًا﴾(الإسراء:٢٣). ﴿قَوْلاً مَيْسُورًا﴾(الإسراء:٢٨). ﴿قَوْلاً لَيِّنًا﴾(طه:٤٤).

وجعل من صفات المؤمنين: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾(القصص:٥٥)، ونلاحظ أن الإعراض يكون عن اللغو وليس عن الشخص، وهذا ينقلنا إلى نقطة جديدة.

٦-الموضوعية والانضباط المصطلحي: ونبدأ من حيث انتهينا في النقطة السابقة، فإن إعراض المسلم يكون عن اللغو وليس عن الشخص، أي عن العمل الخاطئ الذي ينبغي أن تتجه إليه وحده الكراهة، كما قال تعالى على لسان لوط عليه السلام وهو يخاطب قومه الذين جمعوا بين الكفر والشذوذ الجنسي: ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ﴾(الشعراء:١٦٨)؛ فالمسلم موضوعي، يتجه بحبه أو كرهه إلى القول لا إلى قائله، كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾(الزمر:١٨)، مما يتيح له أن يكون منصفًا، حيث يستطيع رؤية محاسن من يكره ومساوئ من يحب، إضافة إلى استفادته من إيجابيات خصومه: ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾.

ولأهمية هذا الأمر، أمر القرآن بالعدل في القول: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾(الأنعام:١٥٢).

وأما الانضباط في استخدام المصطلحات فيقلل من الخطأ، ويزيل اللبس، ويُبعد الإنسان عن الوقوع في فخّ التعميم، ويجعله معتزًّا بثقافة أمته، كما فعل القرآن عندما نهى عن اتباع المصطلحات المتشابهة قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا﴾(البقرة:١٠٤).

٧-معرفة طبائع الناس وحقائق الحياة: إن هذه المعرفة تمكّن المسلم من التأثير على الآخرين، والاستفادة من نقاط قوتهم كأفراد وكمجتمعات.

ومما يجب معرفته في سياق وسائل الإعلام، حب الإنسان عامة للصورة، لدرجة أن مسلمين من قوم موسى عليه السلام بعد نجاتهم من فرعون وتجاوزهم للبحر بمعجزة، وبعد أن رأوا في الشاطئ الآخر أُناسًا عاكفين على أصنام لهم قالوا: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾(الأعراف:١٣٨)، بل وقال صفوة هؤلاء وهم مع موسى عليه السلام في جبل الطور: ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾(النساء:١٥٣)، مما يؤكد خطورة الصورة، وأهمية التقنية فيها لإيجاد إعلام رسالي راقي، كما يفعل أبناء تيار الخدمة في تركيا اليوم.

٨-تحلية المجتمع بشتى أنواع الخيرات: إن استزراع المعروف في أي مجتمع، واتساع دائرة الخير فيه، يساعد الناس على فهم الحقائق، ويقلل من الشبهات ويجفف منابع الفتن، ويساعدهم على وضع النقاط على الحروف، ولهذا قال تعالى عن المنافقين: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾(الأنفال:٢٣)، وعن المؤمنين في المقابل قال ﷻ: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾(الحج:٢٤). وهذا ما ينبغي أن يجند نفسه من أجل تحقيقه الإعلام الإسلامي، حتى تعم الفائدة أبناء المجتمعات الإسلامية جمعاء.

٩-استشراف المستقبل ومعرفة المآلات: كان رسول الله كقائد جماعة وزعيم دولة، يمارس إعلامًا راقيًا بكل شروطه وضوابطه، ومن ذلك قدرته على فهم الناس وطبيعة المجتمعات، والتنبؤ بما يمكن أن ينشأ من إعلام مضاد قد يشوّه الرسالة في أذهان البعض. ولذلك -وعلى سبيل المثال- لم يقتل عبد الله بن أبي رغم أنه اقترف ما تسمى في هذا العصر بجريمة الخيانة العظمى، وقاد طابورًا خامسًا للإرجاف تارة، والتآمر مع أعداء الأمة تارة أخرى، وعلَّل ﷺ الامتناع عن قتله بقوله لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: "دَعْهُ، لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه" (رواه البخاري).

ومن ثم ينبغي على الإعلامي المسلم أن يراعي ذلك في عمله كله، ولاسيما في التعامل مع الآخر. وبهذا كله يرتفع المسلم من دركات "السماع" ذات الأبواب المخلوعة، إلى درجات "الاستماع" ذات الأبواب الآلية التي تعرف متى تنفتح ومتى تنغلق. ■

(*) أستاذ مشارك للفكر الإسلامي السياسي بجامعة تعز / اليمن.

د. جاسم سلطان*

الوعي الحضاري

فاعلية وتمكين وشهود

يعيش الفرد المسلم المعاصر بين ضغوط مفارقتين كبيرتين؛ قرآن منزل يحتوي على أسرار العظمة الربانية وتوجيهاتها الفريدة وما أناطه بالمسلم من تكاليف تتعدى الشأن الفردي، وتنقل هذا الإنسان لمهمة كونية كبرى هي هداية الإنسانية الحائرة: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾(يوسف:١٠٨). فأتباع الرسول ﷺ محملون بمهمة كبرى، على خطاه يسيرون، ومع هذه المهمة تاريخ من الإنجازات الحضارية الكبرى، حيث افتتحت العصور البشرية الجديدة للإنسانية قاطبة، بإبداع المنهج التجريبي الذي أتم الحلقتين الكبيرتين السابقتين للبشرية؛ حلقة المنهج العملي (في الحضارات ما قبل اليونانية)، والمنهج التجريدي النظري الذي أبدعته الحضارة اليونانية. وهكذا تكامل للبشرية المنهج العملي، والمنهج النظري، والمنهج التجريبي، الذي قامت

عليه الحضارة الإنسانية المعاصرة، وبين حاضر تبدو فيه الأمة خارج السباق الحضاري علمًا وعملاً، أرضها وسماؤها وبشرها مكشوفون أمام العالم.

ومن هنا ولد باستمرار سؤال المرحلة في صيغه المختلفة وبعناوينه المختلفة: النهضة، اليقظة، الصحوة، التقدم، البعث، الشهود الحضاري... مفردات كثيرة جوهرها وباعثها واحد هو غياب الأمة عن المشهد الكوني المعاصر وانطلاق أمم الأرض. فبعد الأوروبيين واليابانيين، برزت النمور الآسيوية والصين والهند ثم إيران وتركيا... وفي قلب المنطقة ولدت دولة اليهود المكوّنة من خمسة ملايين من الأفراد، والتي ألجمت أمة يبلغ تعدادها المليار ونيف... عصر لم يعد فيه العدد هو سيد الموقف، بل المعرفة والنوع والاستعداد للتدافع الحضاري بكل أشكاله... حالة جديدة طرحت نفسها -ولا زالت- على العقل المسلم وعلى الواقع المسلم ونحن في رحلة البحث عن الإجابات.

مقاربة المفاهيم

حين نقترب من عنوان المقال، سنجد أنفسنا أمام فكرة الوعي، وفكرة الحضارة، وفكرة الفاعلية، وفكرة التمكين وفكرة الشهود... ونحتاج أن نقترب من هذه المفاهيم المشتبكة شيئًا ما، حتى يمكننا أن نتحدث عن موضوعنا بشيء من الوضوح.

١- الوعي

حين نتحدث عن الوعي نجد أنفسنا أمام كلمة الإدراك، والإدراك هنا -وفي هذا السياق- سنستعمله لعدد من الأبعاد؛ إدراك الذات وممكناتها، وإدراك الآخر وممكناته، وإدراك الزمان والمكان. وبالتالي نحن نبحث عن وعي عام، يسمح لنا باتخاذ القرارات في موضوع صناعة الحضارة، أو استعادة الدورة الحضارية للأمة في ضوء معرفتها بقدراتها وبقدرات الآخر، وبالزمان والمكان الذي تتم فيه عملية التدافع الحضاري.

إن ما نبحث عنه بهذا المعنى، حالة من الرشد تصاحب الروح والحماس، معادلة تقوم على أولي الأيدي والأبصار. وهنا يطرح السؤال نفسه، ما هي المعارف الضرورية لخلق حالة الوعي؟ وكم حجم ما يلزم منها؟ وكيف ستصل للمستهدفين بالوعي؟ الأمر الذي يخلق طيفًا واسعًا من الإجابات، وسنجد مقاربة واسعة للموضوع في المناهج المدرسية، حيث تسعى هذه المناهج لطرح الإسلام وتنوير الجيل ونقله ليكوّن المجتمعات الجديدة... فلماذا لم يتم التنوير رغم أن نسبة التعليم في المنطقة العربية تصل في المتوسط ٥٥٪، وفي بعض البلاد تصل ٨٠٪ من الكتلة الجماهيرية!؟ فما هي الحلقة المفقودة؟.

ما الذي عطل حركة الوعي رغم كل هذا الضجيج حولها!؟ هل هو غياب المادة المعرفية؟ أو افتقاد المهارة، أو نقصان الكثافة، أو غياب التطبيق، أو عدم الوصول للشريحة الفاعلة، أو افتقاد محاولة الانتقال من التنظير للتطبيق بما يخلقه ذلك من تحد عملي؟

إن فكرة الوعي تتركنا حول أسئلة عملية، مثل الوعي بماذا؟ والوعي لمن؟ وأسئلة الكيفيات كاملة، وأسئلة المؤشرات على حدوث الوعي، وهي جميعًا تشكل حلقة الوصل بين النظري والعملي.

٢- الحضارة

كلمة الحضارة ومنها كلمة الحضاري الواردة في عنوان المقال بإضافة ياء النسبة، مصطلح في التداول المعرفي يستخدم بثلاثة معاني، أولها: استخدامه للتعبير عن انتقال مجتمع ما من الطور البسيط إلى الطور المركب، فمن حياة الصياد البدائي أو الراعي المتنقل لطلب الكَلأ والماء للسكنى -مثلاً- حول الأنهار والاستقرار، ونشوء المجتمعات المركبة التي تظهر فيها آثار الاستقرار والتوسع في النظم، وبروز الظاهرة السياسية والاقتصادية والدينية والقانونية والكتابة والعلوم المعمارية والفلك والطب، ونظم المعمار المختلفة، وبروز الصناعات وشق الطرق وبناء الكباري والجسور... كل ذلك يعبَّر عنه بالانتقال من البسيط للمركب، وهو المعنى الأول في تداول كلمة حضارة في الحقل المعرفي. أما الاستخدام الثاني: فهو استخدام كلمة حضارة بالتبادل مع كلمة ثقافة، بمعنى ما يميز مجتمعًا ما من ظهور أنماط الفنون والملابس وأنماط الحياة والمعتقدات والقيم والمنتجات التي تعطي كل شكل اجتماعي خصوصيته وهويته. أما الاستخدام الثالث: فهو استخدام عنصري للمقارنة بين المجتمعات غير المتحضرة أو البدائية. ويركز بعض الباحثين في تقويم الحضارات على الجانب القيمي فيها، ويفضل آخرون تقويم الجانب القيمي والمادي في الحضارة.

أما حين نتكلم عن الوعي الحضاري فنحن نتكلم عن

الإدراك المكافئ لمشروع إعادة إنتاج حضارتنا، أو استعادة الدورة الحضارية لمجتمعاتنا. وفي هذا السياق، تبرز الحاجة لمعرفة المنافس الحضاري أين وصل في تقدمه الفكري والسياسي والاقتصادي والاجتماعي والتقني والزراعي والقيمي؟ وأن ننظر في مخزوننا الحضاري أين توقف في هذه المسارات!؟ فبمعنى من المعاني، كل حضارة تنظر لنفسها من خلال النظر في مرآة الآخر الحضاري بصورة أو بأخرى، ليس لتتماهى معه، ولكن لتنظر في أمر الفجوة التي يراد سدها، وتضع إستراتجية التحرك الحضاري المناسب. بمعنى آخر، الوعي الحضاري يطرح أسئلة قراءة الواقع والتخطيط له إستراتيجيًا وتكتيكيًا وهي المنطقة الأكثر صعوبة بعد التحليل والتنوير. وفي هذا السياق، بدت كلمات مثل الفاعلية والتمكين والشهود، كمراحل تقطعها الإستراتيجية للوصول إلى المطلوب النهائي فلنقترب منها.

حين ندرس المسارات الطويلة التي قطعتها الحضارات في غياب التخطيط المركزي طويل الأمد، نرصد جهودًا نوعية ومفصلية أثمرت الصورة الكلية للإنجازات العظمى، وهي تسير عبر تراكم نقاط مضيئة في فضائها، ومن مجموعها تشكل الحالة الكلية للحضارة.

٣- الفاعلية

الفاعلية هي بمعنى من المعاني، مقاربة النشاط المنتج من خلال الجهد البشري، والمنتج هنا تعني المنتج للحضارة. فهناك في جانب، مطلب كلي هو إنشاء الحضارة واستعادة دور الأمة في الحضور على مسرح الفعل الإنساني لا مجرد الوجود الفيزيائي. هي الإسهام المفيد للذات وللبشرية والذي يعطي مبررًا للوجود.

فهو من جانب، مطلب إنساني، ومن جانب آخر، هو مطلب رباني، باعتبار خصوصية الأمة الإسلامية ودورها المناط بها في الكون من خلال خاتم الرسالات السماوية.

والسؤال العملي: كيف نطلق ممكنات الإنسان المسلم حتى يمارس دوره في صناعة الحضارة؟ وأين تكمن معوقات هذه الفاعلية؟

فسؤال المعوقات، وسؤال كيفية تجاوزها، ومن سيقوم بحل لغزها، هل تكمن أسرار عدم الفاعلية في عدم معرفة الحاجة للفاعلية؟ أم تكمن في اليأس من إمكانية الفعل؟ أم تكمن في نوعية الغذاء الفكري المتداول؟ أم تكمن في صعوبة الواقع المعاش؟ أم في القيود التي تفرضها الأوضاع السياسية والاجتماعية على الفعل؟.. في كل الأحوال نحتاج أن نكتشف موضوع الفاعلية، وكيف سرت في مجتمعات كانت تعيش ظروفًا قريبة من مجتمعاتنا. فما الذي أخرج الجزيرة من ركودها في عصر الرسالة؟! وما الذي أخرج أوروبا من ركودها الذي استمر ألف سنة؟! وما الذي أخرج الصين والهند من ركودهما؟! هل هو مسار واحد أم مسارات متعددة؟! وما سر فاعلية الإنسان وانطلاقته؟ إننا حين نتحول من التحليل اللغوي للفظ الفاعلية للأسئلة العملية المتعلقة بالفاعلية، نضع أيدينا على أسرار كثيرة تعيننا في مقاربة موضوع الفاعلية. ويمكن النظر إلى الموضوع من زاويتين، الأولى: زاوية لانطلاقة المشروع في غيبة المشروع المركزي للدولة. والثاني: انطلاقة المشروع من خلال الدولة وهما المساران المحتملان للحراك، ونحتاج أن ننظر فيهما لمقاربة الموضوع من زاويته العملية. ولكن سنقف عند الأول منهما، لأنه جوهر السؤال المطروح لحين تبني الدولة المعاصرة العربية مشروعًا لاستعادة الفاعلية الحضارية.

مشروع التحولات التي يقودها الأبطال المنفردون

حين ندرس المسارات الطويلة التي قطعتها الحضارات في غياب التخطيط المركزي طويل الأمد، نرصد جهودًا نوعية ومفصلية أثمرت الصورة الكلية للإنجازات العظمى، وهي تسير عبر تراكم نقاط مضيئة في فضائها، ومن مجموعها تشكل الحالة الكلية للحضارة. فلو أخذنا نموذج الحضارة الإسلامية -ابتداءً- لوجدنا أنفسنا أمام تراكم يسير في مسارات متعددة، فهناك تراكم علمي معرفي، وهناك تراكم سياسي، وهناك تراكم عسكري، وهكذا... وللنظر للتراكم العلمي من فترة الوحي والبذور الحية، لفترة جمع القرآن، لفترة حصره في مصحف عثمان، لفترة تقنين اللغة العربية، لفترة تقنين الفقه وأصوله، لفترة جمع الحديث وعلومه، لفترة الترجمة، لفترة إنتاج المنهج العلمي... لن نجد خطة مركزية انطلقت منها كل هذه الجهود، بل إبداعات أفراد

قادت لصناعة الصورة النهائية... ولو نظرنا للحضارة الغربية، لوجدنا من القرن العاشر الميلادي بدأت نذر تحولات في أوروبا آتت ثمارها في القرن الثاني عشر، بإنشاء الجامعات التي تعلم علومًا غير علوم اللاهوت. ثم ظهرت مسارات متعددة للتطور لو تابعنا منها المسار العلمي، فمن صرخة "روجر بيكون" في القرن الثالث عشر، حتى إبداع المطبعة في القرن الخامس عشر، حتى صرخة "كوبرينكس" وهزه لخيمة القرون الوسطى، لصرخة "جاليليو" بمنظاره التي كسرت عمود الخيمة التي تقوم بها القرون الوسطى بأنه لا علم إلا في الكتاب المقدس، ثم يعطي "ديكارت" صك الوفاة للقرون الوسطى، ثم تتوالى الإبداعات حتى تصنع الحداثة الغربية وعصر الصناعة وما تلاه... مسار طويل ليس له خطة مركزية تضافرت فيه طفرات أحدثها المبدعون في كل مسار أنتجت الصورة التي نشاهدها اليوم.

باختصار، هو مسار غير مخطط على المدى الطويل، نقطة الانطلاق فيه هي المبدعون الذين يستجيبون لصوت اللحظة، ومع كل فكرة جديدة يتولد شعاع من النور يكون الفجر القادم.

مشروع التحولات التي تقودها الدولة

وهناك مسار قصير تخطط له الدولة مركزيًّا، وتنحته نحتًا مثل التجربة الصينية والهندية والإيرانية والماليزية، وهو مسار تحرق فيه المراحل، يعتمد على وجود رؤية محددة لدى القيادة في دخول السباق الحضاري، ودافع نفسي كبير لحدوث التحولات الكبرى.

وهنا يبرز السؤال الكبير، كيف تتحرر ممكنات البعض في بيئات لا يوجد فيها دور مركزي تخطيطي للدولة، ويساهمون في صنع الحضارة؟ والتمهيد لبروز مسار الدولة الموعود... لو استطعنا أن نجيب على هذا السؤال، لتجاوزنا عنق الزجاجة في المعضل المطروح على العقل العربي اليوم.

فالعقل العربي اليوم، يطرح معادلته كالتالي: كلنا نريد النهضة، ولا يعجبنا ما هو قائم، والنهضة تحتاج لمشروع دولة، والدولة غير مستجيبة لمطلب الانطلاق، فإلى أن تستجيب لا حيلة لنا!

وهو غير مدرك بأن مسار النهضة -ليس بالضرورة- يمر عبر بوابة التخطيط المركزي للدولة، فقد عبرت النهضة من بوابات أخرى كما رأينا في الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية. وهنا يطرح العقل سؤاله التالي: أليس هذا مسارًا طويلاً لا قبل لنا به... فمن سينتظر كل هذه القرون؟

وهو سؤال مشروع يغيب عنه ممكنات اللحظة التاريخية... لقد حدث في عصرنا ما يسمى بتسارع التاريخ. فالأحداث الكبرى لم تعد تحتاج لقرون، والتخطيط الذي لا تقوده الدولة قد يثمر ثمارًا كبيرة بما توفره التقنية اليوم من أدوات التواصل والتأثير. لقد أصبح للفرد أثر كبير في التحولات بسبب التقنية وأدوات الاتصال، فربما شخص واحد مثل "بيل جيتس" في عصرنا، له من التأثير على واقعنا ما يتعدى دور أكبر الحكومات اليوم. فهناك زلزال معرفي عملاق يتدفق في فضاء العالم اليوم، تستطيع فيه فئة قليلة واعية أن تصنع تحولات معرفية كبرى في مسار الوعي الحضاري، حتى في غياب مشروع للتخطيط المركزي.

٤- التمكين

ومصطلح التمكين، مصطلح يعني زيادة القوة للفرد والمجتمع والدولة، بشكل ينعكس على قدرة الفعل وعلى ديمومة الفعل... وقوة المجتمعات اليوم تتمركز في قدراتها العقلية ومعارفها، وتنعكس على اقتصادها وصناعتها وزراعتها وخدماتها وقدراتها الدفاعية ومعنوياتها... والتمكين عملية مستمرة من زيادة القوة، وكلما زادت القوة زادت الثقة في الذات، وزادت القدرة على استمرارية الفعل.

٥- الشهود

والشهود في المعنى الذي ننحته هنا، هو الحضور المعياري الفاعل، هو مكانة الأستاذية الحضارية، هو واقع الأمة حين تنحت لنفسها مكانًا بين الأمم. ورغم أن التفاسير المتداولة تنحى منحى أخرويًّا في تعريف الشهود، فهو حدث متعلق بيوم القيامة في ما هو متداول... إلا أن السقف القرآني أعلى من ذلك بكثير، هو يحتمل المعنى الدنيوي والأخروي، هي حالة مكتسبة ناتجة عن جهد كبير لتكون الأمة معيارًا لبقية الأمم، وشاهدًا على مخالفتها للمعايير الكبرى للمطالب الربانية السامية، والشاهد حاضر للوقائع عالمٌ بها، فهو لا يشهد إلا على ما علم. ■

(*) خبير في التخطيط الإستراتيجي والإدارة الإستراتيجية / قطر.

د. سعاد الناصر*

صدأ القلوب

أتى على الأمة حين من الدهر لم تعد فيه شيئًا مذكورًا، وأصبح الإنسان فيها -إلا من رحم ربي- يعيش جفافًا ملحوظًا وقسوة بارزة. قد تدمع العين على صورة دامية أو يخفق القلب على حال سائب، لكن هل هذا إلا إحساس عابر من هول اللحظة، لينجرف الجميع في دوامة من الغثائية والعبثية التي تموّه مجموعة من الحقائق والأنظمة والقواعد، وتتحكم الفوضى واللاهدف والجحود في مفردات الحياة الفردية والجماعية للمسلم، تثقل ظهره وتحرف سلوكه وتوجهه إلى مزيد من السقوط والتردي. ويظل البحث عن أسباب الغوص في هذه الهاوية المريعة يسكن كل مهموم بما يلمسه من معاناة الأمة من جهل عميق بأساسيات دينها الذي قامت عليه، وببعد مهول عن تمثيله وفهم رسالته، وتخلف عن الانضباط بمنهجه الشرعي والأخلاقي، وتفاوت بين الممارسة والسلوك وبين القيم الإنسانية، وما يراه من ارتفاع وتيرة التحديات بمختلف توجهاتها، وعلى اختلاف أنواعها، وشراسة الحرب المعلنة عليه، ومن استمراء الهوان والاستسلام.

ولعل افتقاد الإنسان بصفة عامة في هذا الوجود لقيمة من أرقى القيم الإنسانية، وتمييعها وإلباسها لباسًا لا يمت بصلة إلى معانيها ودلالاتها، جعلت الحياة برمتها تفقد معنى وجودها ومغزى خلقها. هذه القيمة هي الحب. فالحب من القيم السامية التي جعل الله فطرة الإنسان تهفو إليها، وجعلها سبحانه أساس العلاقة التي تربط بينه وبين عبده من جهة، وبين الأفراد والجماعات من جهة أخرى. لكن للأسف فقد جفت ينابيع المحبة من القلوب، وامتلأت بأعشاب الغفلة والنفور والقسوة والحقد الكراهية، والعجز عن محبة الذات

لنفسها فضلاً عن محبة غيرها. بل فقدت هذه القيمة لب مفهومها وطبيعة وجودها، وانحرفت إلى مسارب الشهوة والمصلحة. ولم تعد تعبر عن مفهومها الكوني من حيث هي تجربة وجدانية تساعد الإنسان على نسج علاقات رائعة ينعم في ظلها بالأمان والاستقرار والتساكن: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾(البقرة:١٦٥). وقد آن الأوان لتنقية هذا المفهوم، والعودة به إلى مجرى ينابيعه، كي تشتد وتيرة الإيمان، وتُرقق القلوب ويجلى صدؤها. آن الأوان أن يعتصم المؤمن بحب الله، وأن يجعل هذا الحب مشكاة تنير فكره وعقله ووجدانه، ودواء ناجعًا لعلل الروح والجسد.

كيف يتغلغل الحب في سويداء القلوب؟

وهنا نسأل: ألا نحب الله ونحن نتوجه إليه خمس مرات في اليوم، ونمنع النفس عن الطعام والشراب في الصيام ونتصدق ونحج؟ لكن سؤالاً آخر يفرض نفسه على المؤمن: هل يتغلغل هذا الحب في سويداء القلوب، ويسري نديًّا في شرايين الممارسة والسلوك، ويرقى بالعلاقات في مدارج السمو اللائق بالإنسانية؟

رغم الهجمات الشرسة التي تتعرض لها الأمة، سواء بطريقة مباشرة من خلال الاحتلال، أم بطريقة غير مباشرة من خلال المحاولات المستمرة للتشكيك في مرجعيتها وقيمها وأصالتها وثقافتها، فإن هناك عددًا من المبشرات التي بدأت تهل على الأمة، وتقدم لها بعض التوازن والثقة، واسترجاع القدرة على المواجهة والصمود والتحدي. وهي مبشرات تكشف أن الأمة بدأت تستيقظ من سباتها، وتدرك السبيل الصحيح المؤدي إلى النهضة والعزة. ولكي لا يظل هذا الإدراك واقفًا على حدود المعرفة فقط، يجب أن يمس الممارسة السلوكية للفرد. وبمعنى آخر، هذه المبشرات يجب أن تكون حافزًا على نبذ أسباب الهوان والوهن، وتتحول معانيها إلى سلوك فاعل في حياة المسلم اليومية، بحيث تصبح نفسه تحاسبه على التفريط في مقومات المضي في سبيل النهوض والعزة والكرامة وفرض الحق والاحترام.

ولعل قيمة الحب، من أبرز القيم التي فقدت معانيها في حياة الإنسان بصفة عامة، وتشوهت مفاهيمها في العقل والوجدان، وارتبطت بكل ما يؤدي إلى الإسفاف والابتذال والزيف والآثام... وكان من نتيجة ذلك أن فقدت الحياة مغزى وجودها كله، يقول تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾(الذاريات:٥٦). ولن يتحقق مفهوم العبادة، إلا برابط الحب بين العبد ومولاه، وتسليمه ناصيته له طواعية واختيارًا وحبًّا، وإنما يجب أن يكون متغلغلاً في الفؤاد والوجدان ليفيض في شرايين الممارسة والسلوك، ويرقى بالعلاقات في مدارج السمو اللائق بالإنسانية.

ونظرة عابرة إلى الإنسان في المجتمعات الإسلامية، تكشف الفصل المهول بين إعلانه الحب لله -من خلال تنفيذ شعائره الدينية التي يقوم بها كل يوم- وبين تفعيل مقاصد تلك الشعائر في حياته وسلوكه وعلاقاته، ليطفو إلى السطح الجفاف والغلظة والتباغض والتحاسد... وتغرق تلك المجتمعات في التنافر بدل التآلف، والقسوة بدل الرحمة، والبخل بدل البذل والإنفاق المعنوي قبل المادي. وبالتالي لا يستطيع المسلم التبشير -من خلال نفسه- بالقيم الحقيقة والفاعلة، سواء في مجتمعه أو في أي مجتمع آخر، كما يفقد مصداقيته وعوامل تأثيره. وإذا عدنا إلى القيمة الأولى التي قام عليها المجتمع الإسلامي الأول على عهد رسول الله ﷺ، نجد أنه قام بالمحبة الخالصة والمؤلِّفة بين القلوب، والمسعفة على التآخي والعطاء. ذلك أن رسول الله ﷺ ربى أصحابه على قيمة الحب، وحثهم على إشاعتها وتحقيقها عبر وسائل وممارسات مختلفة، لأهميتها في تحقيق السعادة للفرد والأسرة والمجتمع والأمة والإنسانية وفي توحيد القلوب وتآلفها، أو تعارفها وتعايشها وتفاهمها، ولدورها في إعطاء الأمة قوتها وصلابتها؛ فلا تهون ولا تتفتت ولا تعبث بها الفتن والدسائس، وتقوم كل العلاقات والممارسات على أساس من الحب؛ حب الله، حب نبيه، حب الخير، حب الناس... وكانت شخصيته ﷺ التي تفيض حبًّا ورحمة، مثلاً أعلى يهدي المجتمع الوليد إلى تنزيل القيم الإنسانية التي جاء بها أو رسخها في واقعه وسلوكه. كما كانت الأحاديث من مثل قوله ﷺ: "مثل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثَل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى" (رواه البخاري)، تسري ندية في حياته، ليشتد البناء ويقوى وترتفع هامته. فأين نحن من هذا الحب في مجتمعاتنا؟! ■

(*) جامعة عبد المالك السعدي، تطوان/ المغرب.

د. خالد الصمدي*

رحيم بك، غفور لك، عطوف عليك، لطيف بك.. هكذا الحقُّ تعالى يعاملك.. أفلا ينبغي أن تعامل خلقَ الله بما يعاملك به الله؟ وكما تكون معه تعالى في خاصية نفسك هكذا ينبغي أن تكون معه إذا كنت مع الناس.. فلا وحشة ولا وحدة ولا غربة ولا اغتراب إذا ما شرّقتَ أو غرّبتَ، لأن الحق تعالى معك في كل أحوالك وجميع شؤونك.

(الموازين)

* * *

التربية الإسلامية

والبعد الإستراتيجي لقضايا التنمية

يقول الكاتب الإسلامي محمد قطب: "لقد أحسست بطبيعة الحال، أن في القرآن توجيهات تربوية كثيرة، وأن لهذه التوجيهات أثرًا في النفس، وأن الإنسان حين يتدبرها ويتأثر بها يصبح له سلوك معين وشعور معين أقرب إلى الصلاح والتقوى، ويصبح الإنسان أكثر شفافية وأكثر إنسانية"[1]. لقد خلق الله ﷻ في البشر مجموعة من الأحاسيس، وهذه الأساليب والطاقات محكومة بهوى النفس، لأنه تعالى خلق الإنسان لهدف: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾(الذاريات:٥٦). فكان لابد أن توجه هذه الطاقات إلى الانسجام التام مع الغرض من الخلق. وفي هذا الصدد ترتبط التربية الإسلامية مع نمط متكامل من التوجيهات التي ترسم الطريق للإنسان، وتتلخص في:

١- الإيمان، أو ما يمكننا أن نسميه تربويًا، الارتباط بالرقابة الذاتية النابعة من الجانب العقائدي الذي يربط الأرض بالسماء، وعمل الإنسان بفلسفة الجزاء "الثواب والعقاب"، الشيء الذي تعجز عنه القوانين الوضعية لارتباطها بالرقابة الخارجية وتوفر أدلة الإثبات.

٢- الربط بين التربية ومبدإ الاستخلاف: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ﴾(النور:٥٥)، وهذا الربط يشكل جوهر المنظور الحضاري في التصور الإسلامي.

٣- التوازن والتكامل بين الجوانب العقلية والمادية

والنفسية والروحية: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾(القصص:٧٧). وبهذا تكون التربية الإسلامية هي "توجيه طاقات الإنسان الإبداعية إلى تحقيق العبودية لله تعالى، والتخلص من عبودية المكونات المادية التي تعتبر في فلسفة التربية الإسلامية وسيلة لا هدفًا". وفي هذا الصدد يقول الشيخ محمد الغزالي: "ليس الدين أحكامًا جافة وأوامر ميتة، إنه قلب يتحرك بالشوق والرغبة، يحمل صاحبه على المسارعة إلى طاعة الله وهو يقول: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾(طه:٨٤)"[٢].

مفهوم التنمية في بعدها الحضاري

من الخطإ أن نعتبر التنمية مجرد عملية اقتصادية، فنحصرها في مناصب الشغل مع إغفال مؤشرات التقدم والتخلف المرتبطين بالقيم، التي تحكم المسار الثقافي والاجتماعي والسياسي.

وفي هذا الصدد يقول الأستاذ عادل حسين في مقال له تحت عنوان "التراث ومستقبل التنمية": "غني عن البيان أن حديثنا عن التطورات المقبلة خلال عقدين كاملين، هو حديث عن تنمية مركبة تشمل المجتمع كله، وتصيب مكوناته كلها -سياسية وثقافية واجتماعية إلى جانب المكون الاقتصادي- بشكل ينبغي أن يكون متكاملاً منسقًا... ويلاحظ في السنوات الأخيرة أن المتحدثين عن التنمية العربية، أصبحوا جميعًا يتناولونها باعتبارها عملية أوسع من أن تكون مجرد عملية اقتصادية، ولذا يتابعون باعتناء وتحفظ، مؤشرات التقدم في مختلف القطاعات وليس في القطاع الاقتصادي وحده"[٣].

ومن هنا نقول، إن مهمة التربية الإسلامية لا تنفك عن المنظور الشامل للتنمية، بحيث لا تنحصر في إعادة إنتاج أساتذة المادة بقدر ما توجه وتربي كل الطاقات الفاعلة في ساحة التنمية، سواء في ذلك المهندسون والإعلاميون وتقنيو الفلاحة وملاحو الفضاء والبحر وغيرهم. فهي مكون لا ينفصل عن أي مجال، ولعل الذين يرون أن مادة التربية الإسلامية لا ترتبط بإستراتيجية التنمية، يعانون من فهم المدلول الشامل لها، فيرون أن فائضًا من الأساتذة المتخصصين يقتضي وقف آلة الإنتاج التي يتحكم فيها السوق بناء على قانون العرض والطلب.

دور العقيدة في توجيه حركة التنمية

لقد تركزت الأخلاق الاقتصادية في الغرب على أسس عقلانية نفعية صرفة، فكان الإخلاص في العمل، والوفاء بالعهد، وعدم الغش وغيرها، من مبادئ حسن التصرف. والإدارة تأخذ بعين الاعتبار عدم فقدان الزبون، وفي كتاب ثروة الأمم يعلن منظر الليبرالية "آدم سميث": إننا لا نعتبر قوتنا منة من القصاب أو الخباز، بل إن عملهما يعود بفائدة عليهما، إننا لا نخاطب إنسانيتهما، بل أنانيتهما فلا نكلمهما عن حاجياتنا بل عن مصالحهما[٤].

يدل هذا التحليل على الارتباط الصرف بالمصالح الآنية، وتختلف الوسيلة باختلاف نسبة ما يتحقق من هذه المصالح المادية الظرفية. ولعل هذا ما يفسر طغيان المصالح المركزية للغرب، حيث ترتبط التصرفات بفلسفة تربوية تعتمد المذهب الفردي. ويتجلى ذلك بوضوح، حينما يرتبط الأمر بحقوق الإنسان والحوار الحضاري والرؤية الجيوسياسية للعالم المقبل، فلا تكاد تحضر القيم الحضارية لكافة الشعوب في أي مشروع تغييري، ولا تتحدد المضامين المصطلحية للثوابت الحضارية "حقوق الإنسان - العدالة الاجتماعية - السلم - الحوار"، إلا وفق ما تنسجه مصلحة الغرب ولو على حساب المفهوم الحضاري للإنسانية. وهذا لا ينفك عن الفلسفة التربوية التي ذكرنا.

ولهذا يهبط المشروع الحضاري الغربي من محاور بالفكر إلى ملوح بالعصا كلما هددت مصالحه.

وإذا رجعنا بذاكرتنا إلى ما سبق وأن قررناه من أن فلسفة التربية الإسلامية قائمة على الارتباط بالجانب العقائدي الذي يخلق الرقابة الذاتية، وبمبدإ الاستخلاف الذي يأخذ بعين الاعتبار فلسفة الجزاء (ثواب - عقاب) كموجه أساسي، وبمبدإ التوازن انسجامًا مع مكونات الإنسان، تبين لنا أن أخلاقيات التنمية في المشروع الإسلامي، مرتبطة بما هو أبعد من تحقيق المصلحة الذاتية الفردية، إذ تعتبر العقيدة ورقابة الله تعالى ومبدأ التقوى، بوصلات موجهة لأي فعل اقتصادي أو اجتماعي أو سياسي، فيقاس النفع والضرر بمدى الاستجابة لأمر الله وحقوق المكلفين -كما يقول علم الأصول- والتعارض بينهما قائم على درء المفاسد وجلب المصالح العامة، هو الموجه المتحكم.

وبهذا تكون العقيدة عنصرًا متحركًا، وليست إيمانًا

جامدًا لا يتجاوز حدود القناعات الخاصة الداخلية غير المؤثرة في السلوك العملي، لذلك قال الرسول ﷺ: "الإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل"(رواه البيهقي).

وبقراءة بسيطة لبعض نماذج الدعوة في القرآن الكريم، نرى كيف وظفت العقيدة كفلسفة تربوية متكاملة في إصلاح ما فسد من أحوال اقتصادية واجتماعية وسياسية، ومؤصلة لتنمية بديلة، ومن أمثلة ذلك:

إن فلسفة التربية الإسلامية، قائمة على الارتباط بالجانب العقائدي الذي يخلق الرقابة الذاتية، وبمبدإ الاستخلاف الذي يأخذ بعين الاعتبار فلسفة الجزاء كموجه أساسي، وبمبدإ التوازن انسجامًا مع مكونات الإنسان، تبين لنا أن أخلاقيات التنمية في المشروع الإسلامي، مرتبطة بما هو أبعد من تحقيق المصلحة الذاتية الفردية.

نبي الله شعيب وإصلاح الفساد الاقتصادي

قال تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾(هود:٨٤)، حيث ركز على العقيدة في النفوس أولاً، لأنها صمام الأمان وأساس الإصلاح والبناء. ثم بعد ذلك قال: ﴿وَلاَ تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ ۞ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۞ بَقِيَّةُ اللهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾(هود:٨٤-٨٦).

لكن اختلال الموازين عند بعض القوم، أو ما يمكن أن نصطلح عليه في واقعنا الحالي "التفكير العلماني" أو "الفصل بين الدين والدولة"، استحكم في العقول فلم يستسيغوا هذا الربط بين مفاهيم العقيدة والفعل الاقتصادي: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾(هود:٨٧).

ولكن شعيبًا وجه اهتمامهم إلى الجانب العقائدي، لضمان استمرار الفكرة من أن يكون أتباع كثر. فالعبرة بالكيف لا بالكم في المنظور التربوي الإسلامي، والعبرة بترسيخ المفاهيم لا بكثرة الرهط: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾(هود:٩٢).

نبي الله لوط وإصلاح الفساد الاجتماعي

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ۞ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلاَ تَتَّقُونَ ۞ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۞ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ ۞ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ۞ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾(الشعراء:١٦٠-١٦٦). والملاحظ أن الفساد الاجتماعي كسلوك عملي، لم يكن يتم دون إرساء فلسفة تربوية تنطلق من الجانب العقائدي: ﴿أَلاَ تَتَّقُونَ﴾، ﴿فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ﴾، ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. قال ابن كثير: "فدعاهم لوط إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، ونهاهم عن تعاطي هذه المحرمات والفواحش المنكرات والأفاعيل والمستقبحات، فتمادوا في ضلالهم وطغيانهم، واستمروا في فجورهم وكفرانهم، فأحل الله بهم من البأس الذي لا يرد ما لم يكن في خلدهم وحسبانهم، وجعلهم مثلة في العالمين"(٥). والملاحظ في عالم اليوم أن القيم التربوية اللبرالية لا تستسيغ وضع قيود على حرية التصرف إلى حد أدى إلى هتك العلاقات الاجتماعية، ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن تحد حملات التوعية بأخطار الأمراض المتنقلة جنسيًا، ومؤسسات حماية الأسرة والطفل، والمظاهرات ضد العنف والاغتصاب، من حدة هذا الدمار ما دامت الفلسفة التربوية قائمة بالأساس على "دعه يعمل دعه يمر". وقد أضحت مظاهر الخلل الاجتماعي القائمة عائقًا حقيقيًا أمام التنمية على المدى البعيد، فيكفي أن تستنطق الميزانيات المخصصة لمؤسسات إعادة التأهيل ومحاربة المخدرات العيادات النفسية لنقف أمام ملايين الدولارات التي تحتاج إليها مؤسسات التنمية التي تهدف إلى البناء.

موسى عليه السلام وإصلاح الفساد السياسي

لا ينفك الإصلاح السياسي والتنمية في هذا المجال عن التصور العقائدي في المنظور الإسلامي، ومما يجسد هذه الرؤية على مستوى القصص القرآني قوله تعالى واصفًا الفساد السياسي القائم: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ

أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾(القصص:٤)، وللإصلاح في هذا الوضع كان لابد من ترسيخ المفهوم العقائدي أولاً قال تعالى مخبرًا عن فرعون: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى ۞ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾(طه:٤٩-٥٠)، وفي آية أخرى قال: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ۞ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ۞ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلاَ تَسْتَمِعُونَ ۞ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ ۞ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ۞ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾(الشعراء:٢٣-٢٨).

والمعلوم أن تصحيح المفهوم العقائدي لبني إسرائيل، كان كافيًا ليخوض بهم البحر، وليجادل بهم سحرة فرعون، وليخلصوا للفكرة أيما إخلاص إلى أن قالوا لفرعون: ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا، إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾(طه:٧٣-٧٢). وذلك بعد أن قال لهم فرعون مهددًا: ﴿فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلاَفٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾(طه:٧١).

وهكذ أصبح الوضع السياسي القائم، مرفوضًا بعد وضوح البناء العقائدي السليم، فكانت التربية الإسلامية التي تركز مفاهيم الألوهية والربوبية لله تعالى، تعلم العالم والناس أن الحكم المطلق هو لله تعالى، وأن من ولاه الله شأن الناس وفقًا لمبادئ الشورى والبيعة لا يعدو أن يكون مكلفًا بحماية القانون الإلهي وتطبيقه، وهذا كله كفيل بأن يجتث جذور الدكتاتورية والاستغلال من المجتمع الإنساني. ■

(*) رئيس المركز المغربي للدراسات والأبحاث التربوية الإسلامية / المغرب.

الهوامش

(١) منهاج التربية، لمحمد قطب، ج٢، ص:٧.

(٢) الجانب العاطفي من الإسلام، لمحمد الغزالي، ص:٦، دار الدعوة، ط١، ١٩٩٠.

(٣) مجلة الحوار، السنة الأولى، ص:٢١ وما بعدها.

(٤) مجلة الحوار، السنة الأولى، ص:٢٢.

حراء
مجلة علمية فكرية ثقافية
www.hiramagazine.com

كعبة الروح

الأرواح المعذَّبة، بكِ تلوذ،
والنفوس الضالة، إليكِ تعود،
يا منارة الهدى،
وشمس الدجى، ومصباح الكون،
من قلب النور تنزّلتِ،
ومن "ماورائيات" هذا العالم قدِمتِ،
فصرتِ صلة الوصل بين الأرض والسماء...

* * *

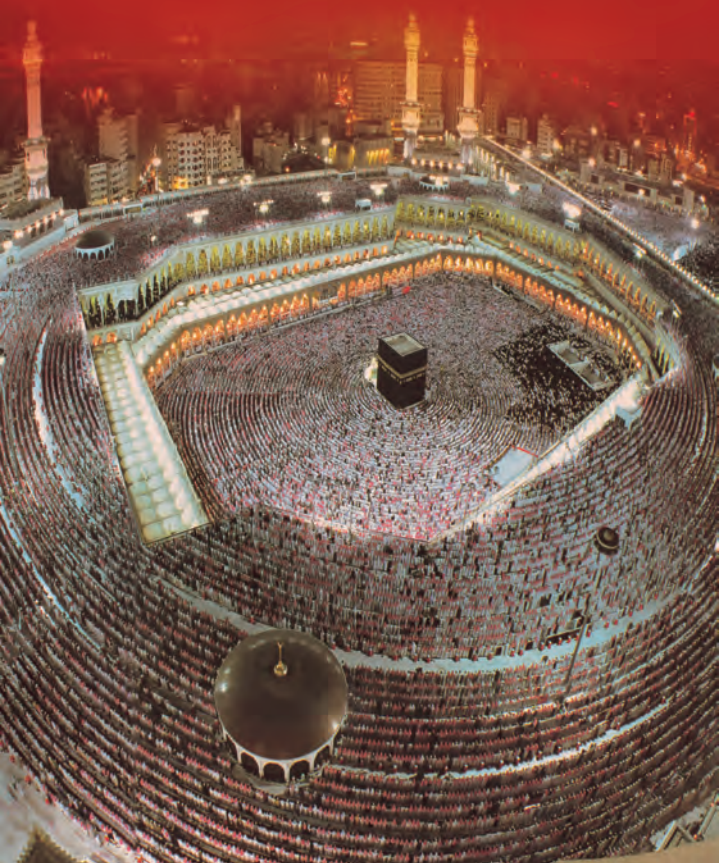

متين رئيس*

دروس الحضرة السلطانية

عندما كان السلاطين العثمانيون منذ قيام الدولة العثمانية ينتشرون في الأرض فاتحين، كانوا يولون اهتمامًا كبيرًا للأنشطة العلمية والثقافية، ففتحوا المدارس، واستقطبوا كبار علماء العصور المتتابعة إلى إسطنبول، وأنشأوا المكتبات، وهيأوا الأوساط التي تخرِّج العلماء وتنتج العلوم.

رتب السلاطين العثمانيون في قصورهم مجالس العلم يتعرفون من خلالها إلى دنيا العلوم، ويظهرون بها احترامهم للعلماء... وبفضل هذه المجالس، تهيأت أرضية حوار جميل بين العلماء والسلاطين، وعلى هذه الأرضية قامت مشروعات إيجابية عظيمة على مستوى الدولة. فقد أمر السلطان محمد الفاتح -على سبيل المثال- بإنشاء مدارس "الصحن الثماني" -وهي ثمانية مدارس، أربعةٌ في شمال جامع الفاتح، وأربعةٌ في جنوبه- ينتسب إليه الطلاب بعد إتمامهم المراحل الابتدائية والمتوسطة والمرحلة التحضيرية. فهي بمثابة التعليم العالي والجامعات في يومنا الحالي. وقد استند السلطان الفاتح في ذلك، على أفكار علماء عصره المرموقين "مُلاّ خُسْرَوْ" و"علي قُوشْجُو" اللذين وضعا مفردات مناهجها التعليمية. وبقيت هذه المؤسسة (الصحن الثماني) من أشهر المراكز العلمية في عصر الفاتح وما تلاه من العصور العثمانية.

التطور التاريخي لدروس الحضرة السلطانية

كانت الدولة العثمانية تقوم بتنظيم فعاليات كثيرة خلال شهر رمضان المبارك، لاكتساب المزيد من فيوضات هذا الشهر وبركاته. والسلاطين بدورهم كانوا يستغلون أيام شهر رمضان وينظمون الدروس الخاصة بها للعلماء. ومن الأمور الطريفة والمثيرة للاهتمام "دروس الحضرة السلطانية" التي عُقِدتْ في شهر رمضان المبارك بشكل خاص بين العلماء والسلاطين. وهذه الدروس -وإن لم يحمل عنها تاريخُنا المعلومات

المفصلة والكافية- سواء من حيث محتواها أو من حيث قيمتها المعنوية والروحية، فإنها كانت بلا شك صفحة مهمة في الحياة الثقافية العثمانية.

استمرت دروس الحضرة السلطانية حتى منتصف القرن الثامن عشر عبر مراحل عدة، فلئن كانت هناك بعض المجالس العلمية التي كان يحضرها السلطان محمد الفاتح بنفسه، والدروس التي يحضرها السلطان محمد الرابع بين صلاتي المغرب والعشاء، ويلقيها شيخه "أحمد واني أفندي" وشيخ الإسلام "يحيى أفندي"، فإنها لم تكن مستمرة بانتظام ولم تكتسب البداية النموذجية المنتظمة لدروس الحضرة حتى عهد السلطان أحمد الثالث، حيث قام الصدر الأعظم "داماد إبراهيم باشا النَّوشَهِرْلي" عام ١٧٢٤م بتنظيمها من جديد، إذ بدأ يدعو في شهر رمضان المبارك إلى قصره العلماء المشهورين لإلقاء الدروس في تفسير القرآن الكريم. وفي عام ١٧٢٨م حضر إحدى هذه الدروس الرمضانية السلطانُ "أحمد الثالث" ونجله الشاهزادة "مصطفى الثالث"، ويروى أنه جرى إحداث دروس الحضرة بحضورهما وتأثرهما.

وربما تَزامُن هذه الدروس التي رتبها "إبراهيم باشا" مع "عهد اللاّلة" له دلالته ومغزاه، فهذا العهد -كما تذكره كتبنا التاريخية- كان عهد ترف وبذخ، إذ بدأت تضعف فيه معنويات رجال الدولة التي كانت عند سابقيهم، ولذلك دخلت دروس الحضرة في بنية البرامج الرسمية للدولة بدءًا من شهر رمضان الثاني (٢٨ نيسان ١٧٥٩) بعد تولي السلطان مصطفى الثالث العرش (١٧٥٧-١٧٧٤). وكان السلطان مصطفى الثالث مشهورًا بالزهد والورع، كما كان يبدي حساسية شديدة في الأمور التي تخص الدين؛ فإذا أدرك قرارًا من القرارات التي اتخذتْ أنه مخالفًا للشرع، فسرعان ما كان يسحبه ويعدّله وفقًا للأوامر الدينية، أو بعبارة أخرى كان حريصًا على تجسيد الصواب في الحياة. وتتحدث الوثيقة التي سجلها كاتب سرّه، أن السلطان مصطفى الثالث كان يحرص على صلوات الجماعة وعلى الأخص صلاة الفجر، وكان يحضر دروس التفسير التي تعقد بعدها في قصره بانتظام.

مَن يحضر دروس الحضرة السلطانية؟

العالم الذي يقدم الدرس في دروس الحضرة السلطانية كان يسمى بـ"المقرِّر"، أما العلماء الذين يستمعون الدرس ثم يوجّهون الأسئلة فكانوا يسمّون بـ "المخاطَب". انطلقتْ هذه الدروس في عهودها الأولى، بخمسة مخاطبين لكل مقرِّر، وبمرور الأيام والأزمنة بلغ عدد هؤلاء إلى خمسة عشر مخاطبًا. وفي أول درس من دروس الحضرة الذي تم عقده في عهد السلطان مصطفى الثالث في شهر رمضان من عام ١٧٥٩م، كان المقرِّر هو أمين الفتوى "أبو بكر أفندي"، وكان "نبيل محمد أفندي" وشيخ القصر "حميدي محمد أفندي" ومفتش شيخ الإسلام "إدريس أفندي" و"مُزَلَّف محمد أفندي" و"إسماعيل أفندي القونوي" هم المخاطبون.

اختيار أعضاء دروس الحضرة السلطانية

قبل شهر رمضان المبارك كان يجري حصر أسماء العلماء المرشحين للدروس وتوزيعهم في مجموعات، ويتشكل لكل درسٍ هيئة خاصة. وقد كان عدد العلماء المختارين لدروس الحضرة في عام ١٧٧٥م سبعين عالمًا، بينما وصل هذا العدد في ١٧٦٧م إلى ١٢٦ عالمًا. يتم اختيار هذه الهيئات من قبل شيوخ الإسلام، حيث يتم اختيار المقرِّرين والمخاطَبين بعناية فائقة، ثم تظهر في الأوامر والمذكرات السلطانية المرسلة إلى المشيخة الإسلامية، فيتم التأكيد على اللياقة والمراتب العلمية والمميزات الشخصية. ولا يستطيع السلطان أو شيخ الإسلام أن يعيّن شخصًا مقرِّرًا أو مخاطَبًا ما لم يكن متمتعًا بهذه الأوصاف. وبعد اختيار هذه الهيئات يتم تقديمها إلى السلطان من أجل التصديق.

أوقات دروس الحضرة السلطانية وأماكنها

كان السلطان يعيّن بنفسه الأماكن التي ستقام فيها دروس الحضرة. وقد عُقدت هذه الدروس لفترة طويلة في "طوب قابي" في أقسام؛ قصر سَبَتْجِيلار، وقصر صوفا، وقصر روان، وقصر إِنْجِيلي، قصر يالي، وقاعة الختان. وفيما بعد انتقلت دروس الحضرة السلطانية في عهود السلاطين عبد العزيز، ومحمد رشاد، وعبد المجيد إلى قصر "دولمه بقجه" وفي عهد السلطان عبد الحميد الثاني، إلى قصر "يِلْدِز".

أما أوقات الدروس في شهر رمضان المبارك، فقد اختلفت تبعًا لاختلاف السلاطين؛ فكانت تجري في بعض الأحيان بين الظهر والعصر، وفي بعض الأحيان بين العصر والمغرب، وكانت على العموم تمتد لساعتين، ولا تتوقف إلا يوم الجمعة من العشر الأول.

محتوى دروس الحضرة السلطانية

تحضر الهيئة المختارة إلى الدرس يتقدمهم المقرِّر، ثم المخاطبون حسب القدم. يتم استقبال الهيئة والسلطان مع مرافقيه وقوفًا، وهذا السلوك يبيّن مدى الاحترام والتقدير لأهل العلم في الدولة العثمانية، ويندر رؤيته في دول أخرى. بعد مراسم الاستقبال، يجلس السلطان والحضور جميعًا، كلٌّ في مجلسه المحدد له. يجلس المقرِّر والمخاطَبون والحضور لفرشٍ أعدت لهم خصيصًا، كما يجلس السلاطين كالمستمعين الآخرين على ركبهم لا على عروشهم، وينصتون وأيديهم على ركبهم.

تتم العناية بإعداد دروس الحضرة السلطانية بشكل خاص باعتبارها جزءًا من تقاليد القصر، فالفرش المخيطة من أقمشة خاصة، ومناضد القراءة المحفورة، والألبسة الخاصة للحضور، وكل التفاصيل الدقيقة، يتم الوقوف عندها في عرض رائع للمدنية العثمانية بكل صفائها.

تبدأ دروس الحضرة بدرس التفسير؛ فيبدأ المقرِّر بتلاوة الآيات، ثم يتم تفسير الآيات من قبل المقرِّر، ثم يتناوب المخاطبون بعرض أفكارهم حول الآيات. ويجتنبون الجدال والاستطرادات غير الضرورية في هذه المجالس العلمية والدروس التي تجري في حضرة السلطان. ومن جانب آخر تتركز العناية لتأمين الوسط الذي يبدي فيه المشاركون آراءهم في راحة تامة، حيث كان في عهد السلطان سليم الثالث (١٨٠٧م) كان يتكلم بنفسه مع العلماء المشاركين، ويطلب منهم أن يعبّروا عن آرائهم في راحة تامة. يبلغ الدرس نهايته بإشارة من السلطان، فيتلو المقرِّر دعاء الختام. هذا وقد جرت العادة أن يمنح السلطان عطية للمقرِّر والمخاطبين.

كانت دروس التفسير تقرأ عادة من كتاب "أنوار التنزيل وأسرار التأويل" لـ"القاضي البيضاوي" (توفي عام ١٢٨٥م)، وتدريس هذا الكتاب الموجز المتوسط في حجمه لأعوام طويلة في المدارس العثمانية، يدل على قيمة هذا الكتاب.

كان تفسير قوله تعالى من سورة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ الدرس الأول في عهد السلطان مصطفى الثالث.

لم تكن دروس الحضرة السلطانية تلتزم في التفسير ترتيبًا

معينًا لآيات القرآن الكريم حتى إذا كان شهر رمضان عام ١٧٨٥م، بدأ التفسير بسورة الفاتحة واستمر وفق ترتيب السور في القرآن الكريم. فعلى سبيل المثال، بدأ تفسير سورة الإسراء المكونة من ١١١ آية في شهر رمضان المبارك عام ١٧٥٥م واستمر حتى عام ١٧٧٨م، وسورة الفتح المكونة من ٢٩ آية اكتمل تفسيرها ما بين عامي (١٧٧٩-١٧٨٤م)، وسورة الفاتحة في عامي (١٧٨٥م) و(١٧٨٦م)، وابتدأ تفسير سورة البقرة من عام ١٧٨٧م واستمر تفسير ٣٠ آية منها طيلة خمس سنوات حتى رمضان ١٧٩١م. واستمرت دروس التفسير المرتبة حتى شهر رمضان من ١٩٢٣م، وتوقفت عند تفسير الآية ٣١ من سورة النحل في الجزء الرابع عشر: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللهُ الْمُتَّقِينَ﴾، وبتفسير هذه الآية توقفت دروس الحضرة السلطانية الرمضانية تمامًا.

لم تقتصر الدروس في المجتمعات العثمانية على قصور السلاطين، فقد استلهم وجهاء المجتمع العثماني دروس الحضرة السلطانية التي يعقدها السلطان في قصره، فنظموا أمثال هذه الدروس في قصورهم وبيوتهم، بل وفي المقاهي أيضًا، وأقيمت دروس الفقه، يتعلم الناس فيها أمور دينهم.

وكان الخليفة السلطان عبد المجيد، آخر من نظم دروس الحضرة السلطانية في قصره في "دولمه بقجه" في شهر رمضان عام ١٩٢٣م، وبإزالة الخلافة في ٣ آذار ١٩٢٤م اختفت دروس الحضرة السلطانية وغابت عن مسرح التاريخ. ■

(*) كاتب وباحث تركي. الترجمة عن التركية: مصطفى حمزة.

د. محمد باباعمي*

السودان

محاورات على ضفاف النيلين

في السودان إمَّا أن تكون شاعرًا أو لا تكون...

وللسودان حسن ليس يخبُره إلا الذي آنس القمر وصلاً ووجدًا...

وللسودان شموخ أبدي في سويداء القلب المتعَب المعنَّى، سائلاً عن الحقيقة، عاشقًا لفحمة الليل، مؤمِّلا على إثرها بزوغ فجر جديد وسطوع أمل وليد...

وقتَ السحَر، اقتحمنا حصنكِ يا مدينة الأسرار...

سحَرًا ودَّعناكِ كي نُخفي ضعفنا، وكيما نصل هاطل دموعنا بالنيلَين، معترفين أمام الأشهاد أنَّ "الملتقى هاهنا"، وأنَّ المفترق "مِن هاهنا"، وأنَّ السودان هي اليوم مجمع الخيِّرين ومثابة المحبِّين، وهي الغدُ المشرق للناصحين الصادقين الصابرين... ليت يعقل ذلك العاقلون...

هي أيام كشعاعات الصبح زارت وأهلَّت، ثم كالبرق الخاطف ودَّعت فأدمعت، ذلك أنها من روْح بهيَّة، ومن ريح زكيَّة، تلك التي كتبها الله "للخدمة" على سفوح أرض السودان الأبيَّة...

أرض، أبية برجالها ونسائها، زكيَّة بشيبها وشبابها، بهيَّة بفتيانها وفتياتها...

أعترف أني تردَّدتُ طويلاً في خطِّ هذه الأسطر المهتزة

المهترئة المضطربة، وما ذلك إلا لأنك في السودان "إمَّا أن تكون شاعرًا، أو لا تكون". والحال أني لست بشاعر وإن كان جمال الشعر يُسبيني ويضنيني...

ألم تنشد الشاعرة السودانية "منى حسن محمد" يومًا، قائلة: وَهَاجِسِي الشِعْرُ،

يُغْرِينِي فَأَتْبَعُهُ
وَلَيْسَ يَتْبَعُنِي فِي دَرْبِهِ
زَلَلُ
لا يَسْتَرِيحُ دَمِي
إلاَّ عَلَى جُمَلٍ يَهْوِي شَغُوفًا لَهَا
مِنْ سُكْرِهِ الجَبَلُ
وَلِلْبحورِ ضِفَافٌ
حِينَ أَهْجُرُهَا تَظَلُّ مِنْ شِقْوَةٍ تَبْكِي
وَتَبْتَهِلُ
وَالشِعْرُ يَمْلِكُنِي
لو كُنْتُ أَمْلِكُهُ
فَحِينَ يَكْتُبُنِي أُصْغِي،
وَيَمْتَثِلُ؟!

المدرسة أولاً والمدرسة آخرًا

كان لوفد "حراء" زيارتان خاطفتان إلى "المدارس السودانية التركية" في منطقة البحري إحدى ولايات الخرطوم الثلاث[1]؛ زيارة يوم القدوم، وأخرى يوم الوداع. ولقد جمَّلها -والله- فلذاتٌ زُغبٌ كالكواكب الدريَّة، يصطفّون في مدخل المدرسة، يُهدونك وردًا أحمر، عنوان وفاء ودليل ولاء، لا لشخص القادمين الزائرين -وإن كان كرمُ الضيف طبعًا لديهم- لكنه وفاء للفكرة والمنهج، وولاء للشخصية المعنوية، تلك التي تَخِذت المدرسةَ محطة لها ومطارًا، وارتضتها مبتدأ لحركيَّتها وخبرًا.

لأجل ذلك كتب الأستاذ المفدَّى "فتح الله كولن" أواخر السبعينيات، تعليقًا على صورة طفل يبكي: "لا تبك يا ولدي، سنمسح دموعك، يا ولدي"... ثم بعد أعوام، عُرضت عليه صورة طفل إفريقي أصيل وهو يبكي نحيبًا، فكتب الأستاذ معلِّقا: "إلى حين أنْ نضمَّك إلى صدورنا... لقد وضَعنا في الخطة أن نوقف بكاءك أيضًا يا ولدي...".

وها نحن اليوم، نشهد "مهرجان مسح الدموع"، ونشاهد "خُطط إيقاف البكاء"، مدارسَ ومحاضن للمعرفة والعرفان، تبذَر وتُزرع على طول القارة السمراء وعُرضها[2]، واحدةٌ منها تقف شامخة على بوابة إفريقية السوداء: السودان، معلنة أنَّ الخير سيعمُّ البلاد بحول الله، وأنَّ الجهل سيُرفع عن العباد بفضل الله، ولو بعد حين؛ بقدرة الحكيم القادر، وبمشيئة الخلاَّق الآمر... ﴿بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ۞ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾(يس:٨١-٨٢).

ألم يقل الأستاذ يومًا: "إنَّ المدرسة بقدر ما تكون متوجّهة نحو الهدف ومتَّسمة بالعمق، تُصبح ميناء أو مطارًا أو منطلقًا للأمَّة، بشرط أن تُصْهَر مكتسباتها في بوتقة الثقافة الذاتية"[3].

ثم إن الأستاذ دعا بإلحاح شديد إلى تبنّي "فيضانِ التبشير وترك التنفير... وإنهاءِ العقم المزمن منذ قرون، بتسليم قوَّة العلم والتفكر لإمرة الإسلام وتفسيره[4]... وتحويل كلِّ مكان، مدرسةً أم معبدًا، شارعًا أم مسكنًا، إلى مراصد ترصُد الحقيقة الكامنة خلف الوجود والحياة والإنسان... وتشغيل منافذ الرؤية المتأمِّلة في اللانهاية، والتي يمتد زمان تعطُّلها إلى قرون، بل إلى ردح أبعد من قرون... وتقديم أجندة حضور الإسلام في مراتب النظر دومًا وفي وحدات الحياة كلِّها".

وها نحن بفضل الله نرى رأي العين بركات هذه الهبَّة الثقافية الملّية الحضارية المباركة، أين منها الهبَّاتُ الآنية الأيديولوجية والسياسوية، التي تملأ الدنيا هرجا، وتعمُر العالم مرجا، ثم بعد ذلك "نسمع جعجعة ولا نرى طحينا"؟!

في رحاب منتدى التنوير المعرفي

بدعوة كريمة من "مركز التنوير المعرفي" نظَّمت حراء المجلَّة، وحراء المركز[5]، ثم حراء المعنى... نظَّمت ندوة علمية[6] اختارت لها عنوانًا من وحي واقعنا ومن صلب أزمتنا، وهو "مساءلات في بناء ذاتنا الحضارية".

كانت الجلسة الافتتاحية رسمية، أدارها المدير العام للتنوير المعرفي الأستاذ الدكتور محمد عبد الله النقرابي، ونشَّطها كلٌّ من الأساتذة: مصطفى أوزجان، والدكتور عصام البشير، ثم وزير الإرشاد والأوقاف الأستاذ محمد

مصطفى الياقوت؛ وكذا الأستاذ الدكتور الأحمدي أبو النور، وزير الأوقاف السابق، من مصر الحبيبة.

ولقد حرص مصطفى أوزجان على التنبيه إلى ضرورة الاعتناء ببناء الذات أولاً، وضربَ على وتر "مقام الجمع" بين الجهادين الأكبر والأصغر، وقال: "إن هذه المرحلة تفرض علينا التركيز على مجاهدة النفس وتزكية الذات، وعلى بلوغ حدِّ التوافق بين أفراد الأمَّة ووحداتها كلِّها. وهذا لعمري صميم بناء الذات الحضارية للأمَّة وصمَّام أمانها".

ثم إن المفكر عصام البشير، قال فيما قال: "ما أحوجنا إلى فتح حضاري على شاكلة صُلح الحديبية، الذي لم تُرَق فيه قطرة دم واحدة، ولم يُشهر فيه سيف، ولقد سئل رسول الله ﷺ: "أفتحٌ هو؟ قال: نعم، والذي نفسُ محمد بيده إنه لفتحٌ"... نعم، إنه فتح العقول بالفكر، وفتح القلوب بالهداية، فما أحوجنا إلى أن نبني هذه الذات الحضارية من هذا الأفق الرحيب".

ولقد شارك في الندوة، وفد حراء وكتَّاب حراء مِن مختلف البلاد العربية، بمحاضرات ثرة ثرية هي على التوالي:

١- الأستاذ نوزاد صواش من تركيا، كانت ورقته تحت عنوان: "مفاهيم أساسية في بناء ذاتنا الحضارية".

٢- الدكتور محمد باباعمي من الجزائر، بورقة تحت عنوان: "السؤال همًّا وهمَّة، قراءة مختلفة في فكر الأستاذ فتح الله كولن".

٣- الدكتور فؤاد البنا من اليمن، بمحاضرة تحت عنوان: "جسور الأستاذ فتح الله كولن بين الأفكار والأفعال".

٤- الدكتور عبد المجيد بوشبكة من المغرب، عنوان محاضرته: "حركة الخدمة والتجديد".

ثم كان بهاءُ الختام بحوار ونقاش علمي، أداره الدكتور طارق محمد نور بعناية وحنكة، فكان لأجل ذلك مثمرًا هادفًا مفيدًا.

د. خوجلي أحمد صديق/السودان.

د. فؤاد البنا/اليمن.

د. عبد المجيد بوشبكة/المغرب.

نوزاد صواش، المشرف العام على مجلة حراء/تركيا.

د. عواطف سر الختم/السودان.

بين أحضان جامعة الجزيرة ومعهد إسلام المعرفة

بُعيد الصبح مباشرة زُمَّت الحقائب وتأهَّبت الجموع للسفر، وجهة أرض الجمال والجلال، بعيدًا هنالك، في مدينة "مَدَني" عاصمةِ ولاية الجزيرة. وقد تم الاستقبال البهيج بين ثنايا "جامعة الجزيرة" بجلسة سريعة وكلمة ترحيب من قِبل رئيس الجامعة الأستاذ الدكتور محمد بابكر العوض، ثم بادل الدكتور مصطفى أوزجان التحية بالتحية، وبعدها سُلِّمت للحضور الهدايا والتشريفات، ووقِّعت مذكِّرة تعاون بين "مركز إسلام المعرفة" و"مجلة حراء".

ومنها توًّا، كانت الوجهة "قاعة مجلس ولاية الجزيرة التشريعي"، لشهود فعاليات ندوة "إنسان العقل والفعل عند فتح الله كولن".

لقـد كانت الندوة موفَّقة بديعة، جمَّلها الحضور المتين، وزيَّنها المكان المكين، وأروعُ ما فيها أنها شهدت عناية خاصة من قِبل وجوه البلد، علماءَ ومثقفين، سياسـيين وإداريين، من مختلف الألوان والأطياف... كلُّهم جاء ليعبَّ من معين تجربة "الخدمة"، وليعترف بالجميل الذي أسدته هذه الحركية للأمَّة الإسلامية مشرقًا ومغربًا، نالَ الجزيرة منه حظٌّ، إن لم يكن وابلاً فطلٌّ.

ولقد كان للنساء اهتمام بالغ وحضور مكثف، ينمُّ عن الوصف، ويسمو علـى مراتـب الألفاظ... ولا أدلَّ على ذلك من التنشـيط الـذي تولَّته أديبة شاعرة، تنحَتُ الألفاظ نحتًا، وتستمطر الشعر دُررًا، فتشدُّ ألباب المستمعين شدًّا خفيفًا، وهي الدكتورة "عواطف سر الختم".

ثـم كان لعميـد جامعة الجزيرة كلمة ترحيب بالوفود، وشـكر للعاملين المجتهدين، وبعدها خاطب مصطفى أوزجان "المجتمع المدني"[٧] وشعب السـودان الأغر، بتحيات طيبة وبحكم ودرر غالية، أمثلُها وجوب الارتباط بـه "هو" سـبحانه، ووجوبُ الخروج الذاتي من سـجن التبعيـة والتخلُّف، بمجاهـدة النفـس، وزرع الخلُق الحسـن، والهجـرة الدائمـة، والمجاهدة الدائبة.

ثـم كانـت الكلمة لوزيـر الثقافـة والإعلام الأسـتاذ الدكتـور "إبراهيم القرشـي " الذي رحَّب بضيوف السـودان، ثم عرج إلى أصالة اللغة العامية السـودانية، وكونهـا ضاربـة جذورها في الفصحى، حتـى وإن صعب على الكثيرين فهمها.

ولقد أجاد الأحمدي أبو النور في كلماته ونصائحه وهو أسـتاذ للكثير مـن الحضـور في القاعة، إذ كان في السـبعينيات محاضرًا ورئيسًـا لقسـم الحديـث فـي "جامعة أم درمان"، يومها بذر هذه البذرة الطيبة فأثمرت هذه الثلة النيرة، وها اليوم يقطف آثارها دعاءً وأجرًا، ومثوبة وفخرًا.

أمَّا الندوتان، فكانتا من تنشيط الأساتذة الوافدين وهي على التوالي:

١- الأسـتاذ نـوزاد صواش بعنـوان "مفاهيم جوهرية فـي حركية الفكر والفعل".

٢- الدكتـور محمـد باباعمـي بعنـوان "مـن سـؤال الأزمة إلـى الفعل الحضاري، الخدمة نموذجًا".

٣- الدكتـور فؤاد البنا بعنوان "أجنحة الإقلاع الذاتي عند الأسـتاذ فتح الله كولن ".

٤- الدكتور عبد المجيد بوشبكة بعنوان "حركة الخدمة والتجديد".

ولم يبخل المستمعون بملاحظاتهم القيّمة، وتعليقاتهم الطيّبة، وعرضِ آمالهـم الطويلـة، وتفائلهم المشـروع فـي "الخدمة" نموذجًـا ومثالاً، وفي الحركية وبناء إنسان العقل والقلب منهجًا وتخطيطًا.

مصطفى أوزجان، مستشار مجلة حراء/تركيا.

د. محمد باباعمي/الجزائر.

أ.د. الأحمدي أبو النور، عضو هيئة كبار العلماء/مصر.

أ.د. إبراهيم القرشي، وزير الثقافة والإعلام/ولاية الجزيرة.

أ.د. محمد بابكر العوض، رئيس جامعة الجزيرة/السودان.

ولقد كتب الأستاذ "فتح الله" مقالاً بعنوان "إنسان الفكر والحركية"[٨]، عالج فيه هذا البعد، دبَّجه بقوله: "إنسان الفكر والحركية... هو في خط الحياة الممتد على مدى فصولها من الحس إلى الفكر ثم إلى الحياة العملية، يتنفس النظام دومًا، وينشغل بحس البناء والإنشاء أبدًا. إنه وليُّ الحق اللدني الذي يعِدُّ قادة أركان الروح، ومهندسي العقل، وعمال الفكر بدلاً عن استخدام القوة المادية لفتح البلاد ودحر الجيوش، وينفخ بلا كلل، نفَس البناء والإعمار فيمن حوله، ويرشد أعوانه إلى سبل عمران الخرائب. وليٌّ للحق جياش بالشوق والشكر، استطاع أن يوحد إرادته مع المشيئة المطلقة، وأن يحول فقره إلى الغنى، وعجزه إلى القدرة عينها. إنه لا يقهر أبدًا ما دام يستخدم مصادر قوته هذه كما ينبغي وبحس الإخلاص والوفاء لصاحبها. وحتى حين الظن بأنه قد هُزم، فستجده على رأس فوج آخر للنصر والظفر".

مسك الختام في ضيافة المصطفى ﷺ

"يوم أو بعض يوم"... هذا عن العمر كلِّه، فكيف يمكن وصف أيام قلائلَ معدودات، مشحونات بالنشاط والسعي الحثيث، "وأيامُ الهنا تمر عِجالا"؟!

نعم، مرَّت عجالاً كلمح البصر أو هو أقرب. ولقد شحنت بزيارات لمراكز وشخصيات علمية وسياسية، منها زيارة مباركة "لمجمع الفقه الإسلامي" الذي كان يديره المرحوم "الأستاذ الدكتور أحمد علي الإمام"، واليوم يقف على رأسه المفكر العالمي "عصام البشير"... فكانت جلسة ودٍّ وتبادلٍ للأفكار، وإبداءِ الاستعداد للتعاون المفتوح في جميع الجوانب والمجالات.

ثم كان مسك الختام، شهود جلسة الافتتاح "للمؤتمر الدولي الأول للسيرة النبوية الشريفة"، من تنظيم "جامعة إفريقيا العالمية" تحت شعار: "تنزيل مقاصد الشريعة، وتعميق محبة الرسول ﷺ"[٩] بقاعة المحاضرات داخل حرم الجامعة.

ولقد كان من بين المشاركين العشرات من الأساتذة من مختلف بلاد العالم الإسلامي، كلُّهم جاء معلنًا ولاءه للحبيب المصطفى عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، مؤمِّلا أن ترقى الأمَّة اليومَ إلى مستوى "النصرة"، وأن ترشَّح لمقام "خير أمَّة"، وأن تكون بحقٍّ جديرة بإعلان الحبيب: "يا ربِّ أمَّتي أمَّتي".

بينما طائرتنا تحلِّق فوق الأجواء وتخترق السحب الكثيفة... القلوبُ منَّا تهفو للقاء الحبيب، وتسيل الأذكار المأثورة عنه ﷺ من بين شفاهنا بحارًا ووديانًا... أصختُ أذنيَّ، وسمعتُ صوتًا خافتًا في السحر، يهتزّ

بنبرات حنينٍ حفيف، ونغمات أنين خفيف، وهو يناغي خير البرية محمَّدا، أعظمَ من قال، وأفضل من ذُكر... سمعت ذا المناجي وهو يترنم ويشدو:

"يا لبَّ الوجود ونواتها، ويا ثمرة شجرة الخلق والصوتَ الجهوري لحقيقة التوحيد، لولاك ما كان لنا ولا للكائنات معنى. ولقد قرأنا ذواتنا، ووقف كلٌّ منا حسب موقعه -إن استطاع- في الصف الصواب، بفضلك أنت".

ثم واصل العاشق الولهان ووصلَ، إلى أن قال معترفًا نيابة عنَّا جميعًا:

"وإنَّ ظلك -يا حبيب الله- على رؤوسنا -ولو من بعيد- صار نفخةَ انبعاث من الموت. وإنَّ ولادتك الحقيقية ستطفئ الشموع الشيطانية كلّها، وتحفِّز الأرواح المدفوعة إلى الظلمات نحوَ منبعِ نورٍ لا يخبو... قد ربط الله النور الذي يضيء العوالم بك. وزِرُّ نبع النور الذي يضيء الدُّنَى تحت لمسة يدك. ولئن سألت فالله مريد مجيب... ولئن قلت فإنَّا سماعون مطيعون... فاسأل[١٠]... حتى تتجلى المشيئة الإلهية، وقل حتى تَسمَعَ الآذان قولاً سديداً".

نعم، يا حبيب القلوب، وجودُنا اليوم ظلٌّ لوجودك... وسؤالنا بعضٌ من سؤالك... ومصيرُنا وغدُنا ومستقبلُنا رهينٌ باتباعك واقتفاء آثارك... فها نحن اليوم من أرض السودان نذكِّر العالمين أنَّ ولاءنا لكَ وحدك، وأننا نقف في الصفِّ وراءك، وجهتنا جميعًا ربُّ الجلال، وموعدُنا بحول الله يوم السؤال... ثم موعدنا الرفيق الأعلى، ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ﴾(التوبة:٧٢)، بل وفي الفردوس الأعلى مع ﴿النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾(النساء:٦٩). ■

(*) مدير معهد المناهج، الجزائر العاصمة / الجزائر.

الهوامش

(١) الخرطوم العاصمة، تنقسم إلى ثلاث ولايات: الخرطوم، والبحري، وأم درمان.

(٢) تنتشر مدارس "الخدمة" اليومَ في أكثر من ١٦٠ دولة عبر العالم، وفي أكثر من ٣٠ دولة إفريقية.

(٣) تلاحظ المناسبة بين هذه العبارة، وموضوع الندوة الأولى في مركز التنوير المعرفي.

(٤) تلاحظ المناسبة كذلك مع موضوع ندوة الجزيرة.

(٥) في السودان مركزان لحراء: مركز الخرطوم، ومركز الجزيرة. تقوم هذه المراكز بنشر المجلة، ونشر الكتب الصادرة من دار النيل، بالإضافة إلى دروس تقوية في اللغات ومختلف التخصصات.

(٦) يوم الثلاثاء ٢٦ صفر ١٤٣٤هـ/٨ يناير ٢٠١٣م.

(٧) نسبة إلى مدينة "مدني"، وليس بمعناه الاجتماعي المقابل للمجتمع الرسمي.

(٨) تلاحظ المناسبة بين النص وموضوع الندوة، ويبدو أن تقابل الفكر بالحركية أبلغ من تقابل العقل بالفعل، كما في عنوان الندوة.

(٩) وذلك يوم الخميس، مساء، ٢٨ صفر ١٤٢٤هـ/١٠ يناير ٢٠١٣م.

(١٠) لاحظ المناسبة بين هذه المناجاة مع موضوع ندوة التنوير المعرفي: "مساءلات في بناء ذاتنا الحضارية".

نور الدين صواش*

سلطان أمام القضاء

بعد فتح إسطنبول، أمر السلطان محمد الفاتح ببناء مسجد فخم لا يضاهى... وضع بين يدي رئيس المعماريين عمودين طويلين من الرخام، لإقامة قبة المسجد عليهما لتكون أعلى وأوسع من قبة أياصوفيا. وعند الانتهاء قام السلطان بزيارة المسجد، ولكنه فوجئ عندما رأى بأن مقاييس القبة لم تكن وفقًا لما أراد وأمر؛ إذ قصّ المعماري العمودين وقصّرهما خشية انهيار المسجد إثر زلزال... غضب السلطان لهذا الأمر غضبًا شديدًا، وأمر بأن يوقع على المعماري عقوبة مغلَّظة أدت إلى إتلاف جزء من بدنه... وبعد فترة من الزمن، ذهب المعماري إلى القاضي ورفع شكاية ضد السلطان محمد الفاتح... خلص الأمر بعد التحقيق، إلى حضور السلطان إلى المحكمة... وعندما حضر محمد الفاتح إلى قاعة المحكمة همّ بالقعود، ولكن القاضي منعه من ذلك قائلاً: "يا صاحب الجلالة، قف إلى جانب خصمك، إنك أمام محكمة العدل"!

وفي نهاية الأمر أصدر القاضي حكمه بمعاقبة السلطان محمد الفاتح بالاقتصاص منه. أبدى فاتح إسطنبول العظيم، إذعانًا لهذا الحكم ورضاء بهذا القرار ولم تبدر منه أيّة بادرة ضد ذلك... تأثر المعماري من هذا الموقف تأثرًا شديدًا، إذ لا يكاد يصدق ما يراه بعينيه؛ قاضٍ يحكم على سلطان عيّنه، بالقصاص؟! عندئذ سارع على الفور إلى سحب شكايته والتنازل عن حقه... فقامت المحكمة بتحويل القرار إلى تعويض نقدي، حيث حكمت على السلطان الفاتح، بدفع تعويض للمعماري مقداره عشر قطع ذهبية من ملكه الخاص... كما رفع السلطان مقدار هذا التعويض إلى عشرين قطعة ذهبية، شكرًا لله لخلاصه من القصاص، وامتنانًا للمعماري للعفو عنه بعدما كان قادرًا عليه[1]. ■

---

[1] وردت هذه الرواية في كتاب "سياحتْ نامه" للمؤرخ والرحالة العثماني "أوليا شلبي".

في الماء ولا يتبلل

كثيرًا ما نشاهد على شاشة التلفاز أفلامًا وثائقية مثيرة عن عالم الحيوان، ونرى الدورَ الذي تقوم به هذه الحيوانات في التوازن البيئي والطبيعي... نشاهد الطيور -على سبيل المثال- التي تغوص في البحار لتلتقط بمنقارها سمكة أو سمكتين ثم لتنطلق من تحت الماء نحو الأجواء بقوة وتواصل طيرانها محلّقة في الهواء وكأن ما قامت به شيء طبيعي عادي! مشهد مثير ، ولكن هل فكرتَ يومًا بالسبب الذي يشجع هذا الطائر بريشه الناعم على القيام بهذه العملية الخطيرة تحت الماء دون أن يخشى الغرق والموت؟!

قام باحثون في عالم الحيوان بدراسة هذا الأمر ليعرفوا السر الكامن فيه. أجروا بحوثهم على طائر الفرقاطة، والنورس، والرفراف، وبط الغطاس، وغيرها من الطيور... وعندما اكتشفوا الحقيقة وقفوا مذهولين مندهشين؛ إذ وجدوا أن هذه المخلوقات مكسوة بريش غير قابل للبلل، أو بالأحرى بريش مغلّف بدهن يمنع نفوذ الماء إليه؛ يتم إنتاجه من خلال غدد وُضعتْ تحت ذيولها لتفرز مادة دهنية أو زيتية باستمرار... حيث يقوم الطائر بالادّهان من هذه المادة وفرْك ريشه بها مستخدمًا منقاره أو رجليه. وبذلك يتمكن من الحصول على معطف ريشي طبيعي لا يتأثر من الماء مهما ابتلّ. وقد يوفر هذا الريش المدهون لهذا الطائر، قدرة السباحة بسرعة ومرونة، ويمكّنه من الغطس تحت الماء لمسافات عميقة لاصطياد فريسته من الأسماك. ومن جهة أخرى فإن وجود هذه الخاصية في هذه الطيور تساعد على الحفاظ على بريق الريش واصطفافه حتى وإنْ انسكبت الماء عليه بغزارة.

لا شك أن طريق الإنسان في تحصيل العلم طويلة، ويبدو أنه سيظل يحاكي غيره من الكائنات ليكتشف الأسرار المخفية فيها مدى الحياة. ■

(*) كاتب وباحث تركي.

حراء

مجلة علمية فكرية ثقافية

www.hiramagazine.com

مجلة علمية فكرية ثقافية تصدر كل شهرين عن:

Işık Yayıncılık Ticaret A.Ş

İstanbul / Türkiye

صاحب الامتياز

مصطفى طلعت قاطيرجي أوغلو

المشرف العام

نوزاد صواش

nsavas@hiramagazine.com

رئيس التحرير

هانئ رسلان

مدير التحرير

أجير أشيوك

المخرج الفني

مراد عرباجي

المركز الرئيس

HIRA MAGAZINE

Kısıklı Mah. Meltem Sok.

No:5 34676 Üsküdar

İstanbul / Turkey

Phone: +902163186011

Fax: +902164224140

hira@hiramagazine.com

مركز التوزيع

٧ ش البرامكة – الحي السابع – م.نصر/القاهرة

تليفون وفاكس: 5-20226134402+

الهاتف الجوال : 201004871038+

جمهورية مصر العربية

نوع النشر

مجلة دورية دولية

Yayın Türü

Yaygın Süreli

الطباعة

رقم الإيداع

١٨٧٩-١٣٠٦

للاشتراك من كل أنحاء العالم

pr@hiramagazine.com

حراء

مجلة علمية فكرية ثقافية

www.hiramagazine.com

التصور العام

- حراء مجلة علمية فكرية ثقافية تعنى بالعلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية وتحاور أسرار النفس البشرية وآفاق الكون الشاسعة بالمنظور القرآني الإيماني في تآلف وتناسب بين العلم والإيمان، والعقل والقلب، والفكر والواقع.
- تجمع بين الأصالة والمعاصرة وتعتمد الوسطية في فهم الإسلام وفهم الواقع، مع البعد عن الإفراط والتفريط.
- تؤمن بالانفتاح على الآخر، والحوار البناء والهادئ فيما يصب لصالح الإنسانية.
- تسعى إلى الموازنة بين العلمية في المضمون والجمالية في الشكل وأسلوب العرض، ومن ثم تدعو إلى معالجة المواد بمهنية عالية مع التبسيط ومراعاة الجوانب الأدبية والجمالية في الكتابة.

شروط النشر

- أن يكون النص المرسل جديدا لم يسبق نشره.
- ألا يزيد حجم النص على ٢٠٠٠ كلمة كحد أقصى، وللمجلة أن تلخص أو تختصر النصوص التي تتجاوز الحد المطلوب.
- يرجى من الكاتب الذي لم يسبق له النشر في المجلة إرسال نبذة مختصرة عن سيرته الذاتية.
- تخضع الأعمال المعروضة للنشر لموافقة هيئة التحرير، ولهيئة التحرير أن تطلب من الكاتب إجراء أي تعديل على المادة المقدمة قبل إجازتها للنشر.
- المجلة غير ملزمة بإعادة النصوص إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر، وتلتزم بإبلاغ أصحابها بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.
- تحتفظ المجلة بحقها في نشر النصوص وفق خطة التحرير وحسب التوقيت الذي تراه مناسبا.
- النصوص التي تنشر في المجلة تعبِّر عن آراء كُتَّابها، ولا تعبِّر بالضرورة عن رأي المجلة.
- للمجلة حق إعادة نشر النص منفصلًا أو ضمن مجموعة من البحوث، بلغته الأصلية أو مترجمًا إلى أي لغة أخرى، دون حاجة إلى استئذان صاحب النص.
- مجلة حراء لا تمانع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.

يرجى إرسال جميع المشاركات إلى هيئة تحرير المجلة على العنوان الآتي:

hira@hiramagazine.com

YEMEN

دار النشر للجامعات

الجمهورية اليمنية، صنعاء، الخط الدائري الغربي،

أمام الجامعة القديمة

Phone: +967 1 440144

GSM: +967 711518611

ALGERIA

Bois des Cars 1 Villa N°68 Dely Brahim

GSM: +213 770 26 00 27

SUDAN

مركز دار النيل، مكتب الخرطوم

أركويت مربع 48 منزل رقم 31 – الخرطوم – السودان

Phone: 0024 999 559 92 26 - 0024 915 522 24 69

hirasudan@hotmail.com

JORDAN

شركة زوزك/شميساني شارع عبد الحميد شرف، بناية رقم:61

عمان/الأردن.

Phone: +962 656 064 44

GSM: +962 775 935 756

hirajordan@hotmail.com

UNITED ARAB EMIRATES

دار الفقيه للنشر والتوزيع

ص.ب. 6677 أبو ظبي

Phone: +971 266 789920

MAURITANIA

Phone: +2223014264

USA

Tughra Books

345 Clifton Ave., Clifton,

NJ, 07011, USA

Phone:+1 732 868 0210

Fax:+1 732 868 0211

SAUDI ARABIA

الوطنية للتوزيع

Phone: +966 1 4871414

المكتب الرئيسي: شارع التخصصي مع تقاطع شارع

الأمير سلطان بن عبد العزيز عمارة فيصل السيار

ص.ب: 68761 الرياض: 11537

الجوال: 00966504358213

saudia@hiramagazine.com

abdallahi7@hotmail.com

Phone-Fax: +966 1 2815226

MOROCCO

الدار البيضاء ٧٠ زنقة سجلماسة

Société Arabo-Africaine de Distribution,

d'Edition et de Presse (Sapress)

70, rue de Sijilmassa, 20300 Casablanca / Morocco

Phone: +212 22 24 92 00

SYRIA

GSM: +963 955 411 990

أرباب المستوى

حضور معرفي في فكر الأستاذ فتح الله كولن

د. محمد باباعمي

- دراسة علمية معمَّقة في فكر "فتح الله كولن"
- موسوعة شاملة لحاضر هذا الفكر ومستقبله
- مقارنات ومقاربات بين رجال الفكر الإسلامي المعاصر
- خارطة لآفاق المستوى الفكري كما يرسمها "فتح الله كولن"
- استقراء وتحليل لمعضلات الفكر والحلول التي يقترحها "فتح الله كولن"

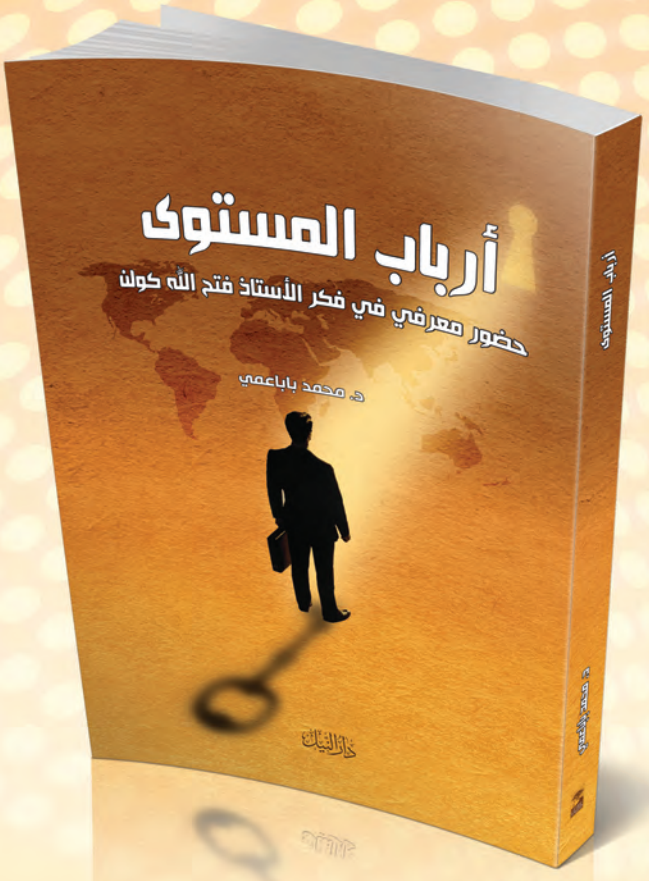

مركز التوزيع فرع القاهرة : ٧ ش البرامكة، الحي السابع، مدينة نصر – القاهرة / مصر
تليفون وفاكس : 5-20226134402+ الهاتف الجوال : 201004871038+
www.daralnile.com

حراء
مجلة علمية فكرية ثقافية
www.hiramagazine.com

الوعد الحق

سيأتي يومٌ، الكونُ كلُّه داراتٌ حولكِ،
"الشرق والغرب" يولّي الوجهَ شطركِ،
ساعتَها، أجداثُ عصور خلتْ تنبعث،
حتمًا ستبزغ أيام الله وعدًا..
لا تتخلف..

* * *

تركيا: ٦ ليرات • أوروبا: ٣,٥ يورو • أمريكا: ٥ دولار • المملكة العربية السعودية: ١٢ ريال سعودي • اليمن: ٣٧٥ ريال يمني • المغرب: ٢٠ درهم • الجزائر: ٢٥٠ دينار

ISSN 1306-1879
9 771306 187009 35
www.hiramagazine.com